سلسلة
تقريب لغة القرآن الكريم

الشاهد الأول في قضية النحو

تأليف
الدكتور . حمزة حمزة أبو النصر
مدرس لغة بكلية التربية ـ جامعة المنصورة « مصر »
أستاذ مساعد بكلية التربية ـ جامعة عجمان « الامارات »

الطبعة الأولى
١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م

مكتبة الإيمان - المنصورة

مكتبة الإيمان - المنصورة

أمام جامعة الأزهر

ت: ٠٥٠/٢٢٥٧٨٨٢

الإهــداء...

إلى كل من تدفعه الغيرة على حمى العربية الشريفة إلى السهر على حمايتها في لسانه وصفاته ولسان أهله ومن يعول .

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل

كنت زمن التلمذة أشعر ـ ويشعر ويعاني معي كثرة كاثرة من الدارسين ـ بالمعاناة أثناء دراسة شواهد النحو ، ومعالجة معانيها وشروحها وإعرابها ؛ ذلك أن الشواهد كانت تورد مبتورة مقطوعة عن سياقها في الغالب ، لا يسعفنا في فهمها ـ فهما كاملا ـ إلا ما نصيبه أحيانًا مما قد يتوافر تحت أيدينا من كتب الشروح .

وكنت أرى أن لو أورد الشاهد متبوعا ـ ولو في الهوامش بعيدًا عن المتن ـ بشيء من الإشارة إلى المناسبة التي قيل فيها ، أو أتبع بغيره لكان ذلك أعون على فهمه ، واجتلاء موضعه من القواعد تشاهد على صحتها من ديوان العرب ولاسيما ـ كما يقولون ـ أن الإعراب فرع المعنى .

لذا أحاول فيما يأتي من صفحات أن أعرض الشواهد النحوية مراعيًا :

١ ـ إيراد المناسبة ـ ما أمكن ـ ليكون ذلك أعون على الفهم ، وأذكى لنشاط النفس بما قد يحوي من قصة أو طرفة .

٢ ـ وذكر بعض ما يلزم من أبيات تلي الشاهد لزيادة إيضاح المعنى وإكمال حدود القصة أو المناسبة .

٣ ـ وعرض ما أرى أنه مفيد من إعراب وغيره من علوم العربية حتى لا يصبح الأمر مجرد أبيات شعرية ومناسبات قول .

وإني لآمل أن أكون بذلك ، قد قربت العربية الجميلة من ألسنة أبنائها ، وخففت عن المحبين دراستها بعض ما عانيته عندما كنت على مقاعد الدراسة مثلهم .

وعند الله ـ وحده ـ أحتسب الجزاء على ما أصبت ، وأسأله الصفح عما قد يكون قد وقعت فيه من خطأ .

وهو وحده ولي التوفيق .

وكتبه راجي عفو ربه

الدكتور / حمزة حمزة أبو النصر

السبت ٧ من شهر يوليو سنة ٢٠٠٢م

١ ـ متى تَركتُها عدَّتَ ربيعةَ ومُضَرَ

رُوي أن رجلا عاد من سفر ، فوجدت امرأته قد ولدت ، فأنكرَ المولود، وقال لها :

لَتَقْعُدِنّ مَقْعَدَ القَصِيِّ مِنِّي ذِي القَاذُورَةِ المقْلِيِّ
أوْ تَحْلِفِي بِرَبِّكِ العَلِيِّ أنِّيَ أبُو ذَيَّالِك الصَّبِيِّ

فقالت مجيبة له :

لا والذي رَدَّك يَا صَفِيِّي مَا مَسَّنِي بَعْدَكَ مِنْ إنْسِيِّ
غَيْرَ غُلامٍ وَاحِدٍ قَيْسِيِّ بَعْدَ امْرَأيْنِ مِنْ بَنِي لُؤَيِّ
وآخَرَيْنِ مِنْ بَنِي عَدِيِّ وَخَمْسَةٍ كانوا علَى الطوِيِّ
وَسِتَّةٍ جَاءُوا على العَشِيِّ وَغَيْرَ تُرْكِيٍّ وَنَصْرَانِيِّ

فقام زوجها إليها ليضربها ، فحاولوا منعه ، فقال : متى تركتها عدّت ربيعة ومُضَرَ (أي ذكرت جميع رجال القبيلتين ضمن من مسّوها) .

والمعنى :

يقول الرجل لامرأته :

والله ، لتقعدّن أيتها المرأة بعيدة عني في المكان الذي يقعد فيه الشخص البعيد عن الناس ، لكونه صاحب وساخة حسيّة أو معنوية ، ومبغوضًا عندهم إلا أن تحلفي بخالقك المنزّه عن كل ما لا يليق به أنى أبو هذا الولد الصغير ، فلا مانع من قعودك حينئذ عندي .

أما ما معنى ما وردت به المرأة على زوجها فواضح من الأبيات ، والأبيات من الرجز ، وهي لرؤبة بن العجاج .

والشاهد :

في قوله (أنّى) أبو ذيالك الصبي ، حيث رويت بكسر همزة (إنّ) وفتحها ، فدلّ ذلك على جواز الوجهين (فتح الهمزة وكسرها) إذا وقعت (إن) في جواب فعل القَسَم الظاهر ، ولم يقترن خبرها باللام .

فمن كسرها جعلها جملةً جوابا للقسم لا محل لها من الإعراب .

ومن فتحها جعلها مع مدخولها (أنّ وما دخلت عليه من المبتدأ والخبر) في تأويل مصدر معمول لفعل القسم بإسقاط الخافض سدّت مسد الجواب أي: أو تحلفي بربك العلي على أبوتي لذلك الصبي ، ومن فتح همزة إن لم يجعلها جوابا للقسم ، لأن جواب القسم لا يكون إلا جملة .

وقد قيل بجواز الوجهين (إذا وقعت في جواب فعل القسم الظاهر) احترز بما بين القوسين عما :

- إذا لم يكن فعل القسم ظاهراً سواءً مع اللام نحو قوله تعالى : ﴿**والعصر إن الإنسان لفي خسر**﴾ ونحو ﴿ **حم . والكتاب المبين . إنا أنزلناه في ليلة مباركة** ﴾ فيتعين هنا كسر همزة إنّ لعدم ظهور فعل القسم .

- وإذا كان فعل القسم ظاهراً وقد اقترن الخبر باللام نحو قوله تعالى : ﴿**ويحلفون بالله إنهم لمنكم**﴾ وقوله تعالى : ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم** ﴾ فهنا يتعين كسر همزة إن لاقتران خبرها باللام .

اللّغة :

لتقعدن : أصله لتقعدين : حذفت النون التي هي علامة رفع المضارع لتوالي الأمثال (النونات) وحذفت الياء للتخلص من التقاء الساكنين ، ودُلّ على حذف الياء بكسر الدال .

القاذورة : تطلق على القذر وهو الوسخ ، وعلى الفاحشة كالزنا ،

وعلى الذي يبعد عنه الناس لسوء خلقه.

ذَيَّا لك : ذيا اسم إشارة (مضاف إليه مبني على السكون في محل جر) واللام للبعد ، والكاف حرف خطاب (مبني على الكسر لا محل له من الإعراب وهو تصغير ذلك) ، وهو تصغير شاذّ ؛ لأن التصغير من خواص الأسماء المتمكنة ، فلا تصغر المبنيات ؛ وإنما صغروها لكونها شابهت الأسماء المتمكنة من حيث أنها تقع صفة وموصوفة .

٢ ـ لا تنكحي بوهة

من المشهور المحفوظ من ألفية ابن مالك قوله :

ولا يجوز الابتداء بالنكرة مالم تفد ، كعند زيد نمرة .

قال الأشموني [١] : « ولم يشترط سيبويه والمتقدمون لجواز الابتداء بالنكرة إلا حصول الفائدة . ورأى المتأخرون أنه ليس كل أحد يهتدي إلى مواضع الفائدة فتتبعوها [٢] ، فمن مُقِلٍّ مُخِلّ ، ومن مكثر مورد مالا يصحّ ، أو معددّ لأمور متداخلة » ثم وافق صاحب الألفية في حصر أوجه الإفادة في خمسة عشر وجها .

وقد جاء الوجه الخامس عشر ـ والأخير ـ هكذا :

أن تكون مبهمة ، كقوله [٣] :

---

(١) الأشموني : شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ، القاهرة : مكتبة الإيمان (ب.ت) ، جـ١ ، (ص ١٥٧) .

(٢) فتتبعوها : تعقبوها وأحصوها (يقصد أوجه الإفادة التي تسوغ الابتداء بالنكرة) .

(٣) اختلفوا في الشاعر :

قالوا هو امرؤ القيس بن مالك النميري . وقيل إنه لامرئ القيس بن حجر الكندي ، وقال أبو القاسم الآمدي في «المؤتلف والمختلف» هذا ليس بصحيح ، والصحيح الأول.

وقال العيني في شرح الشواهد : (قلت) هو مثبت في ديوان الكندي ، وقال في شرحه وهي رواية أبي عبيد والأصمعي ،وكذا نص عليه الأعلم .

قلت : يترجح عندي ـ والله أعلم ـ أنه امرؤ القيس بن مالك النميري ، لما استبعده من احتياج امرئ القيس بن حجر (وهو ملك ابن ملك) إلى أن ينصح أخته ألا تتزوج رجلا صفته ما جاء في الأبيات ، فكيف لابنة الملك بالرضا بمثل هذا ، وأنّى له التطلع إلى بنات الملوك (المؤلف) .

مرسَّعَةٌ بينَ أرساغه   بِهِ عَسَمٌ يَبْتَغِي أرْنَبَا

وهذا البيت يقع بين أبيات هي بتمامها :

أيا هند ، لا تنكحي بوهة   عليه عقيقته أحسبـــا
مرسعـــة بين أرساغـــه   به عَسَمٌ يبتغي أرنبـــا
ليجعل في ســاقِهِ كعبهــا   حذار المنية أن يعطبـــا

والمعنى :

يقول امرؤ القيس بن مالك لأخته هند ـ ناصحا ـ : لا تتزوجي رجلاً من صفاته :

١ ـ إنه بوهة ، قالوا يشبه البوهة ، وهي البومة العظيمة . قال أبو حاتم رجل بوهة : لا خير فيه .

٢ ـ وسخ غير نظيف ، لا يزال شعره الذي نزل به من بطن أمه على رأسه ، فهو لا يغتسل ، ولا يطلي شعره ، ولا يحلقه.

٣ ـ أحسب ، في شعر رأسه شقرة (وهي مذمومة عند العرب) قد ابيضت جلدته من داء فصار أحمر وأبيض وأبرص .

٤ ـ جبان ، يعلق تميمة في يده على مفصل العظم الذي بين الكوع والكرسوع مخافة الموت أو البلاء أو العين ،ويعلقها أيضا في رجله على مفصل ما بين قدمه وساقه.

٥ـ أعوج اليد ، به عَسَم واعوجاج ويبس في مفصل الرسغ تعوج منه اليد .

٦ ـ خواف من الموت ، فهو يطلب أرنبًا ليجعل كعبها في ساقه لتحفظه من العين والسحر والجن (لزعمهم أن الجن تجتنب الأرانب لأنها تحيض ، وأن من علق كعبها لا يصيبه جنٌ ولا سحر .

والشاهد :

في قوله : « مُرَسَّعَةٌ » .

إذ سوغ الابتداء بها ـ وهي نكرة ـ قصد الإبهام ، إذا لم يُردْ بها شيئًا معينًا ، فهو لا يقصد مرسعة دون أخرى .

وقد اعترض على هذا التوجيه بقولهم : إن إبهام النكرة هو المقتضى لعدم صحة الابتداء بها ، فكيف يكون مسوغًا لهذا الابتداء ؟

وأجيب عن الاعتراض السابق بأن المراد قصد الإبهام ، وهو من جملة مقاصد البلغاء ، فإذا وجد في كلامهم نكرة مبتدأ بها ، ولم يظهر لها مسوّغ، جُعِل المسوغ قصد الإبهام.

اللغة :

الأرساغ : جمع رسغ وهو عظم متوسط بين الكوع والكرسوع .

والكوع : عظم يلي إبهام اليد .

والكرسوع : عظم يلي الخنصر .

وأما البوع :فعظم يلي إبهام الرجل .

وقد ضربوا المثل لمن لا يفقه وهو غافل لا يدري شيئًا بقولهم : (فلان لا يعرف كوعه من بوعه) .

تختلف روايات البيت باختلاف بعض الكلمات فيه ، ويقع الاختلاف في الرواية في كلمتي (بين / أرساغه) حيث :

تروي : مرسعةٌ بين أرباعه ، والأرباع المنازل ، فالمعنى أنه ملازم منازله، لا يغزو، ولا يهتدي لخبره، فهو يرسع تميمته ، يجعلها في رسغه يتعوذ بها.

وتروي : مرسعة بين أرباقه (جمع رِبْق وهو الحبل فيه عدة عري ، فالمعنى أنه يربط بهذه الحبال على تميمته التي على رسغه .

٣ ـ قَدْ قيل ما قيل

لا يعدم الساعي بالوشاية بالناس عند الرؤساء والملوك من يرد عليه كيده، ويقلب على رأسه قصد سعايته .

ذكروا أن النعمان بن المنذر (المكنّى بأبي قابوس) كان له جليس من العرب اسمه الربيع بن زياد العبسي ، وكان ينادم النعمان ويؤاكله وكانت بينه لبني جعفر بن كلاب .

وحدث أن وفد بنو جعفر بن كلاب على النعمان ـ وكان يجهل قدرهم ـ فرأوا منه جفوة ، فاتهموا الربيع بن زياد بالسعي بهم عند النعمان حتى ازدراهم وأهملهم ، وكان رئيس بني جعفر عامر بن مالك ملاعب الأسنة ، وكان بين وفدهم لبيد بن ربيعة (وكان إذ ذاك غلامًا قد خلفوه في رحالهم ، ولم يقصد مجلس النعمان معهم) .

فلما أخبروه بما كان من النعمان واتهامهم الربيع بالوشاية بهم ، قال لبيد: هل تقدرون أن تجمعوا بيني وبينه فأزجره بكلام لا يلتفت إليه بعده ؟ قالوا : نعم ، فكسوه حلةً ، وغدوا به على النعمان ، فوجده يتغدى مع الربيع ، فأنشد لبيد :

يا واهب الخيــــر الجزيل من سَعَــهْ   نحن بني أم البنين الأربعــــــةْ
سيوف حـــق ، وجفان مترعـــــةْ   ونحن خير عامر بن صعصعــــةْ
إليك جـاوزنا بـلادًا مسبعـــــــةْ   نخبر عن هذا خبيرًا فاسمعــــةْ
مهلا أبيت اللعــن لا تأكــل معــهْ   إن استه من بَرَص ملمـــــعةْ
وإنه يـــولج فيـــها أصـــبعـــــهْ   يولجها حتى يواري أشجعـــةْ
كأنما يطلب شيئًا أودعهْ

فالتفت النعمان إلى الربيع قائلا : (كذلك أنت يا ربيع ؟) فقال : لا والله ، لقد كذب ابن الأحمق اللئيم . فقال النعمان : أف لهذا طعامًا ، لقد خبُث ، انصرف عنّي يا ربيع ، فلحق بأهله ، وأرسل إلى النعمان أبياتا يعتذر فيها ، فأجابه النعمان بهذه الأبيات (وفيها الشاهد) :

شَرِّدْ برحلك عني حيث شئت ولا ... تُكْثِرْ عَلَيَّ ، وَدَعْ عَنْكَ الأقاويلا

[قد قيل ما قيل إن صدقا وإن كذبا] ... فما اعتذارك من قول إذا قيلا

فانزل بحيث رأيت الأرض واسعة ... فانشر بها الطرف إن عرضا وإن طولا

والمعنى :

يقول النعمان ردًا على اعتذار الربيع :

اذهب برحلك بعيدًا عني حيث شئت ، ولا تكثر عليَّ الكلام ، ودع عنك الأقاويل.

إن كان ما قاله فيك لبيد إخبارًا بالواقع أو بخلاف الواقع ، فهو على كُلّ قد قيل ، ووقع النطق به ، فلا معنى حينئذ لتشكيك منه .

فانزل في أي مكان بعيدًا عني ، حيث ترى الأرض واسعة ، وابحث لك فيها عن منزل مقلبا نظرك فيها طولا وعرضا [1] .

---

(١) لما رحل الربيع عن النعمان أرسل إليه أبياتًا يقول فيها :

لئن رحلتُ جمالي لا إلى سَعَةٍ ... ما مثلها سعةٌ عرضًا ولا طولاً

بحيث لو وزنت لخم بأجمعها ... لم يعدلوا ريشة من ريش سمويلا

ترعى الروائم وأحرار البقول بها ... لا مثل رعيكمُ ملحًا وغسويلاً

فاثبت بأرضك بعدي ، واخل متكئا ... مع النطاسي طورًا وابن توفيلا

والشاهد :

موجود في قول النعمان : (إن صدقا وإن كذبا) .

وأصل القول فيه بتمامه (قد قيل ما قيل سواء إن كان القول صدقا أو كان القول كذبا) .

فحذف (كان واسمها) في الموضعين ، وهذا كثير في كلام العرب بعد (إنّ) .

واللغة :

تَلَمّعَة : ملوّنَة .

أشجعه : الأشجع : أُصُول الإصبع التي تتصل بظاهر الكفّ .

صدقا/ كذبا : الصِّدق الإخبار بالشيء على ما هو عليه حقيقة .

والكَذِبُ : خلاف الصدق ، وهو الإخبار بالشيء بخلاف ما هو سواء كان الإخبار عمدا أو خطأ ، وقد يخفف لفظ الكذب (بكسر الكاف وتسكين الذال) .

ولا واسطة بين الصدق والكذب ،فالخبر إما صدق وإما كذب .

اعتذارك : تشكيك مما قاله لبيد ، والاعتذار من الشيء : التشكّي منه.

٤ ـ بَدَتْ فِعْلَ ذِي وُدّ

حين يطول العمر ، وتكثر التجارب ، وتزداد حصائل الخبرات ، ثم يجتمع إلى ذلك تنور بصيرة ، وسداد رأى ، وصواب لسانٍ ، بسبب الدين والهداية به فإن الحكمة تنطلق على الألسنة ، ويصدق علّى قولها قوله ـ ﷺ ـ : « **إن من البيان لسحراً** » .

قال النابغة الجعدي (واسمه حسّان بن قيس ، وفي البعض الحواشي : قيس بن عبد الله ، وقيل عبد الله بن قيس ، وكنيته : أبو ليلى ، وكان قد عمر مائتين وعشرين سنة ، وقيل مائتين وأربعين) قال : وقد وفد على النبي ﷺ فأنشده قصيدته التي مطلعها :

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا ... وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فقال النبي ﷺ : « **إلى أين** » ؟ .

قال النابغة : إلى الجنة .

فقال رسول الله ﷺ : « **نعم ، إن شاء الله** » .

فلما بلغ النابغة قوله :

ولا خير في حلم إذا لم يكن له ... بوَادر تحمي صفوه أن يكدرا

ولا خير في جهل إذا لم يكن ... أريب إذا ما أورد الأمر أصدرا

قال ﷺ : « **لا يفضض الله فاك** » ، فكان من أحسن الناس ثغراً ، وفي بعض العبارات : فلم ينكسر له سنّ مع طول عمره .

ولا يتصور أن يخلو عمر طويل كهذا ، وشاعرية مبدعة من حديث عن حب ـ حقيقي أو على ما تقول الشعراء ـ ومن ذلك قول النابغة الجعدي :

[وفيه الشاهد] :

بَدَتْ فِعْلَ ذِي وَدٍّ فَلَمَّا تَبِعْتُهَـــا تَوَلَّتْ وبَقَّتْ حَاجَتِي في فُؤَادِيَا
[وَحَلَّتْ سَوَادَ القَلْبِ [لا أنا باغيا] سواها ، ولا عن حبِّها مَتراخِيَا]

والمعنى :

ظهرت المحبوبة في حال من يبدي من المودة والمحبة كُلَّ ما يُطمعُ المحبَّ، ويُقَوِّي رجاءه في المواصلة ، فلما قَوِيَ رجائي ، وطمعت في مواصلتها ، ومشيت خلفها ، اعرضتْ عني ، وتركت حاجتي في قلبي ، فلم أظفر منها بودّ ، ولم أقض منها وطراً ، بينما نزلت قلبي ، وسكنت حبّة قلبي ، ولست أطلب غيرها ، ولا أتواني في حبّها .

والشاهد :

هو إعمالُ (لا) في الموضعين : (لا أنا باغيًا) و (لا عن حبها متراخيا) أو في الأول منهما فقط (حيث يحتمل أن تكون (لا) الثانية مؤكدة للأولى ، ومتراخيًا معطوف على (باغيا) .

وقد أعمل الشاعر (لا) إعمال (ليس) في المعرفة ، وهو الضمير .

وإعمال (لا) إعمال (ليس) في المعرفة هو مذهب أبي الفتح (ابن جني) وابن الشجري مستدلّين بهذا البيت .

ومذهب الحجازيين أن (لا) تعمل عمل (ليس) إلا بشرط أن يكون الاسم والخبر نكرتين .

ومن لا يجيز إعمال (لا) عمل (ليس) في مثل هذا الموضع ـ تأول قول الشاعر بأن الأصل : لا أُرى باغيا ، فحذف الفعل المبني للمجهول (أُرى) وبقي نائب الفاعل منفصلا (أي أنا) أو أن (أنا) مبتدأ حُذف خبره (أي لا أنا أُرى باغيا).

وقد أورد الجرجاوي [١] أن ابن مالك تردد رأيه في هذا البيت :

فأجاز في شرح التسهيل القياس عليه ، أي أن (لا) تعمل في المعارف كما تعملُ في النكرات .

وتأوله في شرح الكافية كالحجازيين ، بأن (أنا) مرفوع على النيابة عن الفاعل بفعل مضمر عاصب (باغيا) على الحال ، تقديره : لا أُرى باغيا ، فلما حُذف الفعل (وهو أُرى) برز الضمير وانفصل .

والتأويل الثاني (الذي في شرح الكافية) على أن (أُرى) بصرية ، وإلا (فأنا) مفعول أول ، (وباغيا) مفعول ثان ، والتأويل الذي ذهب إليه ابن مالك في شرح الكافية أولى، لأن حذف غير القلبي (الفعل أرى الدال على الرؤية البصرية) أولى من حذف القلبي (الفعل أُرَى لو كانت الرؤية عقلية) .

اللُّغة :

فِعْل ذي ود : حال من بقلبه مودّة .

وكلمة (وُد) مثلثة الواو (تفتح الواو ، وتضم ، وتكسر) معناها : المحبة .

حاجتي : مطلب قلبي ، وهو أن تبادلني الحب .

والحاجة : جمعها حاجٌ (بحذف الهاء وعدم تشديد الجيم)، وحاجات، وحوائج .

---

(١) عبد المنعم الجرجاوي ، شرح شواهد ابن عقيل (وبهامشه فتح الجليل بشرح شواهد ابن عقيل للعدوي) ، القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، عيسى الحلبي وشركاه ، (ب. ت) (ص ٦٠) .

٥ ـ يكون وراءه فرج قريب

رب عنادٍ أورث هلكة ، ورب كلمة سببت قتلا وقودًا .

ذلك ما جرى لهُدْبَة بن خشرم العذري وكان شاعرًا عظيمًا من بادية الحجاز ، وكان من أمره أن ابن عمه زيادة بن زيد العذريّ تغزّل في فاطمة أخت هدبة ، وقال فيها :

عُوجي علينا واربعي يا فاطما   أما ترين الدمع مني ساجمًا

فما كان من هدبة إلا أن قابل فعل زيادة بمثله ، فتغزل هدبة في « أم قاسم» أخت زيادة ، وقال فيها :

متى تقول القلص الرواسما   يحملن أمّ قاسم وقاسما

وثارت النفوس وتحرك الشرّ ، فضرب زيادة هدبة على ساعده ، وشج رأس خشرَم أبي هدبة ، فبيّت هدبة لقتل زيادة ، وقتله ، وكان لزيادة أخ يدعى عبد الرحمن ، فرفع الأمر إلى سعيد بن العاص شاكيًا هدبة طالبا القصاص ، فكره سعيد الحكم بينهما ، فأرسلهما إلى معاوية رضي الله عنه .

فلما وقفا بين يديه .

قال عبد الرحمن : يا أمير المؤمنين ، أشكو إليك مظلمتي وقتل أخي ، فقال معاوية : يا هدبة ، قُلْ (أي ردّ على اتهام عبد الرحمن إيّاك بالقتل) .

قال هدبة : إن شئت أن أقصّ عليك كلامًا أو شعرًا . قال معاوية: لا ، بل شعرًا ، فقال هدبة مرتجلا قصيدة أولها :

ألا يا لقومي للنوائب والدهر   وللمرء يردى نفسه وهو لا يدري

ومن أبيات هذه القصيدة :

فَلَمَّا رأيتُ إنّما هي ضَرْبَةٌ ... من السيف أو إغضاء عَيْن على وِتْر
عمدتُ إلى أمرٍ لا يُعَيَّر والدي ... خَزَايته ، ولا يُسَبّ به قبري
رمينا مرامينا ، فصادف سهمنا ... منية نفس في قتار وفي قِدر
وأنت أمير المؤمنين فمالنا ... وراءك من مفد ، ولا عنك من قصر
فإن تك في أموالنا لا تضق بنا ... ذراعًا ، وإن صبر فصبر للصبر(١)

فقال معاوية : أراك قد أقررت يا هدبة . فقال له عبد الرحمن : أقدني(٢) فكره معاوية ذلك ، وضن بهدبة عن القتل ، وقال : ألزيادة ولد ؟ قال : نعم . قال معاوية : أصغير أم كبير ؟ قال عبد الرحمن : بل صغير ، قال معاوية : يُحتَبس هدبة إلى أن يبلغ ابن زيادة (٣) فأرسل هدبة إلى المدينة فحبس بها سبع سنين ، وقيل ثلاث سنين .

وبينما هدبة في الحبس زاره صديق له يدعى أبا نمير ، ليواسي هدبة ، فقال هدبة هذه القصيدة (وفيها الشاهد) :

طربتَ وأنت أحـيانا طروب ... وكيف وقد تَغشـاك المشـيب
يُجدّ النأيُ ذكرك في فؤادي ... إذا ذهـلت عن النائي القلوبُ
يؤرقني اكتـئاب أبي نمير ... فقـلبي من كـآبته كئـيبُ
فقلتُ له هـداك الله مهلاً ... وخير القـول ذو اللب المُصيبُ
[عسى الكرب الذي أمسيت فيه ... يكـون وراءه فـرج قريب]
فيأمن خـائفٌ ويُفَكُّ عانٍ ... ويأتي أهله الرجلُ الغريبُ (*)

---

(١) قوله (فإن تَكُ في أموالنا) المقصود بـ (تُكُ) : الدية ، والصبر : الحبس .
(٢) أقدني : أي اقتل هدبة كما قتل أخي زيادة (عقوبة القتل العمد القَوَد) وهو قتل القاتل.
(٣) ابن زيادة الصبي ، هو وليّ دم أبيه ، وقد حبس هدبة حتى يبلغ الصبي ، ويخيّر في قاتل أبيه ، فإن شاء عفا عنه ، وإن شاء أخذ الدية ، وإن شاء أصر على قتل من قتل أباه ، وقد فعل الأخيرة .
(*) الأبيات مع تتمة لها في أمالي القالي (م١ ، ص ٧٢) ، ط دار الكتب العلمية ـ بيروت.

وظل هدبة في الحبس حتى بلغ ابن زيادة ، فعرض عليه عشر ديات ، فأبى إلا القود ، وكان ممن عرض الديات على ابن زيادة ، الحسن بن عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ وعبد الله بن جعفر ، وسعيد بن العاص ، ومروان بن الحكم ، فلم يقبل ابن زيادة من ذلك كله شيئًا .

فلما ذهبوا بهدبة إلى الحرّة ليُقتل ، قابله عبد الرحمن بن حسان ، فقال لهدبة : أنشدني ، فقال هدبة :

ولستُ بمفراح إذا الدهرُ سرّني ... ولا جَازِعٍ مَنْ صَرْفِهِ المُتَقَلِّبِ[(١)]

ولا أبتغي شرًا إذا الشرّ تاركي ... ولكن متى أُحْمَلْ على الشرّ أركبِ

فلما جاءوا بهدبة للقتل قال :

ألا عللاني قبل نوح النوائح ... وقبل ارتقاء النفس فوق الجوانح[(٢)]

وقَبْلَ غدٍ ، يالهف قلبي من غد ... إذا راح أصحابي ولست برائح

إذا راح أصحابي تفيض عيونهم ... وغودرت في لحد علىَ صَفَائح[(٣)]

يقولون : هل أَصْلَحتُمُ لأخيكم ... وما القبر في الأرض الفضاءِ بصالح

ثم قال :

أذَا العرشِ إنّي عائذٌ بك مؤمن ... مُقِـرٌّ بـزلاتـي ، إليـك فقيـرُ

وإني ،وإن قالوا أميرٌ مسلّط ... وحجاب أبوابِ لَهُنَّ صريرُ

لأعلم أن الأمر أمرك إن تُدِنْ ... فَرَبٌّ ، وإن تَغفرْ فأنت غفور[(٤)]

---

(١) المفراح ، وزن مفعال كثير الفرح ، صرف الدهر : نوائبه ، وتقلب أحواله .

(٢) عللاني : صبراني ، ارتقاء النفس فوق الجوانح ، علوّ الروح خارجة من الجسد إلى مافوق الصدر .

(٣) اللحد : شق في جانب القبر يدفن فيه الميت ، والصفائح : الحجارة توضع على القبر .

(٤) تُدن : تجازي وتعاقب ، فرب : أي خالق حاكم له الحكم والأمر (واختار الربوبية لأنها إنعام ومجال طلب الرحمة) .

وقد وردت في شأنه أقوال أذكرها تتمة للأمر قبل أن أفرغ لمعالجة الشاهد؛ من ذلك :

ـ أن هدبة أقبل على ابن زيادة ـ قبل أن يقتله قصاصًا لأبيه ـ وقال له : ثبّت قدميك ، وأحدّ الضربة ؛ فإني يتمتك صغيرًا ، وأرملت أمك شابة .

ـ وأنه ـ قبل أن يقتل ـ طلب فك قيوده ، وفي ذلك قوله :

فإن تقتلوني في الحديد فإنني قتلتُ أخاكم مُطلقًا لم يُقيَّد

وأنه ـ قبل قتله ـ قال لأهله : بلغني أن القتيل يعقل بعد سقوط رأسه (أي يشعر ويدرك) ، فإن عقلت فإني قابض رجلي وباسطها ثلاثا ، فلما ضربت رأسه فعل ذلك .

ـ وأن ابن دريد قال عنه : هو أول من أقيد بالحجاز (أي أول من قُتل بسبب قتله آخر عمدًا) .

ـ وأن الدراقطني وابن عساكر أخرجا عن ابن المنكدر ، أن هدبة العذري أصاب دمًا ، فأرسل إلى أم سلمة زوج النبي ﷺ أن استغفري لي ، فقالت: إن قُتِل استغفرت له .

المعنى : « لأبيات الشاهد » :

يقول الشاعر ـ على عادة الشعراء في مخاطبة النفس أو افتراض وجود مخاطب أو مخاطبيْن .

طربت ، وتلك حالك في بعض الأحيان ، وإن كان الطرب لا يليق بك وقد علا المشيب رأسك ، فكيف تفعل ؟

وبعدك عني يجدد ذكرك في قلبي ، على حين تذهل القلوب عن البعيد النائي ، ويجعلها طول البعد تغفل عن ذكره.

وما أراه من حال أبي نمير من الاكتئاب لما أنا فيه يؤرق خاطري ، فقلبي قد اكتئب لمرأى الكآبة عليه .

فقلت له داعيًا له بالهداية تمهل ، وتأن ، وتصبر ، وخير القول ما كان من ذي عقل وإصابة في القول .

إني لأرجو أنّ يكشف الله الهم الذي أمسيت فيه عما قريب ويكشفه عني.

فإذا تحقق ذلك ، أمن الخائف ، وفُكَّ أسرُ المحبوس الأسير ، وعاد الرجل الذي غرّبه الحبس إلى أهله .

والشاهد :

هو في قول الشاعر (يكون وراءه فرج قريب) .

والأصل في عسى (وهي من أفعال المقاربة) أن يكون خبرها فعلا مضارعًا (وقد يأتي اسما مفردًا في القليل) وأن يكون الفعل المضارع مسبوقًا بـ (أنْ) .

ومذهب سيبويه أن يكون خبر عسى فعلا مضارعًا مقترنًا بـ (أنَ في الشعر والنثر ، ومذهب جمهور البصريين أن خبر عسى) لا يتجرد من (أنْ) إلا في الشعر .

وقد وقع الخبر في البيت (الشاهد) غير مقترن بـ (أن) بل مجردًا منها على مذهب سيبويه.

وقد جاء خبر (عسى) في القرآن الكريم مقترنا (بأنْ) في قوله تعالى: ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ [الإسراء: ٥١] .

واللغة :

طربت : الطرب حالة من الخفّة تعتري الشخص في حالة الحزن أو حالة السرور ،وهو يكاد يكون مقترنا بالسرور في الدائر المستعمل .

ذو اللب : لبّ كل شيء قلبه ،والمقصود ذو القلب الذي يعقل ، أو العقل الذي يحس أن يدرك .

٦ ـ هذا لعمركم الصَّغَار

مما يمرض النفس ويشقيها ، ويُشْعِرُ بالذل والصغار أن يكون الشخصان مستاويان في الأصل والاستحقاق ثم تفرّق المعاملة الصادرة عمّن يملك الأمر بينهما ، فإذا لأحدهما الإكرام والتقديم حين الأمن والسلامة ، وللآخر التأخير، وإذا كان الحال على العكس إذا الأول يُدّخَرَ ويبعد عن الشرّ ويصان، وإذا الثاني الذي كان مؤخرًا يقدم في موضع التّلف والهلاك .

هذا ما جرى لشاعرنا [1] وعاني منه ، فقد كان أبواه ـ على ما ذكروا يؤثرون أخاه عليه ،فإن كان خير أخروا شاعرنا وقدموا أخاه ، وإن كان شرّ، قدموا شاعرنا ، وضنوا بأخيه ، أن يصيبه المكروه فقال : [وفيه الشاهد] :

يا ضمرُ أخبرني ولست بكاذبٍ ... وأخوكَ نافعكُ الذي لا يكذبُ
أمن السوية أن إذ استعنيتمٌ ... ومتَحتُمُ ، فأنا البعيدُ الأجنَبُ
وإذا الشدائد بالشدائد مَرّةً ... أشجتكُمُ فأنا الحبيب الأقربُ
ولجندب سَهْلُ البلاد وعذبُها ... ولي الملاح وَحَزْنهن المجدبُ
وإذا تكون كريهة أدعى لها ... وإذا يحاس الحيسُ يدعى جُندبُ
[هذا لعمركم الصَّغَار بعينه ... لا أمَّ لي إن كان ذاك ولا أبُ
عَجبًا لِتلكَ قضيةً ، وإقامتي ... فيكم على تلك القضية أعجبُ

(١) اختلفوا في اسم الشاعر ونسبه : فقالوا هو عمرو بن الغوث بن طيء ، وهو أوّل من قال الشعر في قبيلة طيء بعد مؤسسها طيء ، ونسب سيبويه (في الكتاب) هذا الشعر إلى رجل من مذحج ، ونسبه أبو رياش إلى همام بن مرة ، وزعم ابن الأعرابي أنه لرجل من بني عبدة مناة قبل الإسلام بخمسمائة عام ، وقال الحاتمي هو لابن الأحمر ، وقال الأصفهاني : هو لضمرة بن جابر.

والمعنى :

يا ضمر (وهو مرخم ضمرة) أخبرني ، ولستَ من الكاذبين ، وأنا أخوك نافعك في الشدائد الذي لا يَكْذِبُكَ القول .

أمن العدل والقسمة بالسوية أن إذا أصبتم غِنىً ، وأعطيتم الناس من غناكم كنت أنا البعيد المجْتنب المحروم من العطاء .

وإذا الشدائد نزلت بكم فأنزلت الشجى بحلوقكم تذكرتموني لأخرجكم منها ، فأنا حينئذ الحبيب الأقربُ إليكم المذكور في أوقات المحن .

ويُخَصُّ جندب دوني بالسهل من موانع البلاد والعذب المرىء منها ويخصص لي أنا الملح منها ، أو نبات الحمض مما تخرجه .

وإذا كانت حرب ومقتلة دعوتموني للمشاركة لأقاتل دونكم وقد أقتل ، فإذا ما كان السلام وأعدت الولائم دعوتم جندبًا وتركتموني .

هذا وحقكم هو الذل بعينه ، فإذا أنا رضيته فلا أم ليَ ولا أب وعدمت نسبي وأهلي إذا كانت هذه قسمة أهلي .

ما أعجب هذه الحال من حال ، والأعجب منها أن أرضى باستمرار تلك الحال ، وأرضى بالإقامة بينكم على أساسها .

والشاهد [١] :

هو في قوله : (لا أمٌّ لي ولا أبُ) .

---

(١) وفي الأبيات (البيت الأخير) شاهد آخر وهو يروي (عجبٌ) بالرفع وهذا هو موضع الشاهد في هذا البيت ، إذ تعرب (عجبٌ) مبتدأ ، والجار والمجرور (لتلك) متعلقًا بمحذوف خبر المبتدأ ، والشاهد فيه هو رفع (عجبٌ) على الابتداء مع أنها نكرة ، والمسوغ لذلك هو دلالتها على معنى التعجب الذي هو مدلول فعل (أتعجب) [وعلى هذا جاز الابتداء بـ (ما) التي في قولهم (ما أحسن زيدًا) مع كونها نكرة لدلالتها =

حيث عطف قوله (أبٌ) على ما قبله بالواو مع تكرار (لا) ، وجاءَ بالاسم الأول (أمَّ) مبنيًا على الفتح على أساس أن (لا) التي دخلت عليه عاملةٌ عمل (إنَّ) وجاء بالثاني (أبُ) مرفوعًا .

وهذا الاسم المرفوع (أب) يحتمل ثلاثة وجوه :

ـ إما أن يُجْعَلَ معطوفًا بالواو على محلّ (لا مع اسمها) عطف مفرد على مفرد (ومحل لا مع اسمها رفع بالابتداء) ويقدر لهما خبر واحد (لا أم ولا أب كائنان لي) .

ـ وإما أن يجعل اسما لـ (لا) الثانية على أنها عاملة عمل ليس وخبره محذوف ، أي : وليس أبٌ كائنا لي .

ـ وإما أن يُجْعَل مبتدأ ، و (لا) التي قبله (الثانية) مهملة غير عاملة أصلاً ، ويسوغ كون (أب) مبتدأ مع أنه نكرة ، وقوعه بعد حرف النفي .

وعلى الوجهين الثاني والثالث تكون الواو قد عطفت جملة على جملة .

فهذه هي الوجوه الثلاثة التي يخرّج عليها رفع الاسم الواقع بعد (لا) الثانية إذا كان الاسم الواقع بعد (لا) الأولى مفتوحًا .

اللغة :

قوله : (يا ضمرُ) هو مرخم « ضَمْرَة » وتُضَمّ الراء على لغة من لا ينتظر، وتُفتح على لغة من ينتظر .

قوله : (ولست بكاذب) : يُحْمل على معنى أنه توصية له بوجوب الصدق، ويحتمل أن يكون ثناء عليه .

الملاح : جمع ملح بمعنى الملح ، وقد ضبطه العيني بضم الميم وقال :

= على معنى التعجب] .

هو نبات الحمض .

قوله : (وحَزْنُهُنّ) : الحزن (بفتح الحاء وسكون الزاي) : ما غَلُظ من الأرض ، وهو عكس السّهل (فالأرض سَهْلٌ أو حَزْن) .

قوله : (وإذا يحاسُ الحيس) : الحيس : تَمرٌ وسمنٌ وأقِطٌ (وهو اللبن المجفف قطعا) يخلط جميعه ويدلك حتى يختلط .

قوله : (الصغار) هو : الضّيْمُ والذُّل والهوان .

٧ ـ فَلَوْ أَنَّكِ في يوم الرخَاء سألتني

يتفَاضَلُ الناسُ في الخَلْق كما يتفاضلونَ في الخُلُق ، وإن كان الثاني (وهو الخَلْقُ والصورة) لا دخل للإنسان فيهما ، لذا فهما ليسا من أسباب المحامد، إلا أن يكونا مدحًا بجمال ، وثناء على حسن ، أما الأول (وهو الخُلُق والطباع) فهو محل الاكتساب واجتلاب المحامد أو المذَامّ .

والناس ـ من حيث الجود والأريحيّة وحب العطاء ـ على ثلاث صور ، في استجابتهم لمن يطلب رفداً ، أو يسأل عونا ، أو يريد حاجة .

أ ـ فمنهم من هو كالصخرة في طلبك الماء منها ، تعالجها بأقصى ما تستطيع من الجهد والطاقة ، فتتكسر فأسك في بحثك عن الماء وتظل الصخرة على يُبُوسَتِها وصلادتها .

ب ـ ومنهم من هو كالبئر ، يعطيك مطلوبك في النهاية ، لكنك لابد أن تجهد في الطلب وتتعبَ فيه ، وتحفر وتحفر حتى تصل إلى الماء .

جـ ـ ومنهم من هو كالعين الغائضة ، ينساب منها الماء ـ بل يفور ـ بلا طلب من أحد ، فهي تعطي دون سؤال .

ومن أهل الجود والأريحية مَنْ خاصته أنه لا يرد سائلا مهما كان المسؤول عزيزاً أو غاليًا ، ومهما كانت نفس المسؤول ضنينة به أو حريصة عليه ، ومن هؤلاء شاعرنا ، الذي قال : (يخاطب امرأته) :

فَلَوْ أنك في يَوْمِ الرَّخَاءِ سَألْتِني ... طلاقَكِ لَمْ أبخَلْ وَأَنْتِ صَدِيقُ
فَلاَ رَدُّ تـزويجٍ عَلَيْهِ شَهَـادَةٌ ... وَمَا ردٌّ مـن بَعْدِ الحِـرارِ عَتِيقُ

المعنى :

فلو أنك أيتها المرأة طلبت منّي حَلّ عصمتك في زمن سعة العيش ، وفي حال كونك صادقة في مودّتي ونصحي لم أمتنع من ذلك كراهة رد السائل ، فهو يصف نفسه بكثرة الجود حتى إن صديقته التي يعزّ عليه فراقها لو طلبت منه الفراق لأجابها إلى ذلك .

والشاهد :

في قوله : (فلو أنّكِ) .

فهذه (أنْ) المخففة من الثقيلة (أنَّ) .

والقاعدة : أن يحذف اسم « أنْ » المخففة ، ويكون اسمها ضميرَ الشأن كقولك (علمت أن سيكون علاج مجاني للمرضى) فاسم أن هنا هو ضمير الشأن ، والمعنى : علمت أنَّ الشأن (أو الأمر) سيكون علاج مجاني للمرضى .

ويكون خبر (أنْ) المخففة من الثقيلة : جملةً فعليةً فعلُها مُتَصرِّفٌ (أي ليس فعلا جامدا) وليس بدعاء ، ويُفْصَلُ بين (أنْ) المخففة من الثقيلة وخبرها بفاصل ، نحو (سمعتُ أن سوف نغادر اليوم) ، حيث فصلت (سوف) بين (أنْ) والخبر (نغادر) ، وهذا الفصل بينها وبين خبرها .

قال جماعة : إنه واجب بينهما ، ليكون الفاصل كالعوض عن المحذوف وهو اسم (أنْ) .

وقال آخرون : هو حسن للسبب المذكور .

ولا يترك الفاصل إلا في ضرورة شعرية ، وليس في النثر .

فإن كان هناك فارق آخر (غير الفاصل) مثل :

- وقوعها بعد العلم كقولك (علمت أنْ زيدٌ قائم) .

- أو رُفِعَ المضارع بعدها نحو قولك (ظننت أنْ يقوم زيد) جاز ترك الفاصل.

فإن كان خبرها جملة اسمية نحو ﴿وآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠] أو كان خبرها فعلا جامدًا نحو ﴿ وأن لَّيْسَ للإِنسَانِ إلاَّ مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم:٣٩] أو كان فعل جملة الخبر ماضيا نحو ﴿ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا ﴾ [النور:٩] على قراءة من قرأ ﴿ غَضِبَ ﴾ بصيغة الماضي . فلا حاجة إلى الفاصل .

وأعود إلى الشاهد :

وهو أنه ذِكر اسم (أنْ) المخففة من الثقيلة وهو ضمير الخطاب (الكاف) في (أنْكِ) وهو ليس ضمير الشأن ، وذكر الاسم بهذه الصورة قليل في كلام العرب أو هو ضرورة .

واللغة :

الرخاء : سعة العيش من قولهم (رَخِيَ العيش) أو (رَخُوَ) العيش ، إذا اتسع .

(وقد خص يوم الرخاء بالذكر لأن الإنسان ربما يهون عليه مفارقة أحبابه يوم الشدة ، إذ يتعلق همه الأكبر بشأنه خاصةً) .

وأنت صديق : أي صادقة في المودة والنصح .

والصديق يستوي فيه المذكر والمؤنث ، وتوصف به المرأة ، ويقال لها أيضا: صديقة .

٨ ـ نزلت بمنزلة المحب المكرم

كثيرون هم الذين يرون أن نسب الإنسان فعله . . . وأنت الإنسان قد تعلو أصوله ، ثم لا يوفّق إلى المكارم ، فتنزل به أفعاله أسفل سافلين . وأن الإنسان قد لا يعرف الناس أصوله أو ينكرون نسبته ، ثم يكون له من الخلق نسب ، ومن مكارم الفعال أصول وأحساب .

وذلكم عنترة بن شداد [١] (ويقال عنترة بن معاوية بن شداد) العبسيّ ، كان من حديثه [٢] أن أمه كانت حبشية تدعى زبيبة فوقع عليها أبوه ، فأتت به، فقال أبوه لأولاده ، قالوا : كذبت ، أنت شيخ قد خرفت ، صرت تدّعي أولاد الناس ، فلّما شب عنترة قالوا له : اذهب فارع الإبل والغنم ، فانطلق يرعى ، وباع بعض ما يرعاه واشترى بثمنه سيفا ورمحًا ودرعا ومغفراً (ودفنها في الرمل) وفرسًا يركبها وكان له مهر يسقيه لبن الإبل .

وكان ـ في الجاهلية ـ من غلب ـ في الحرب ـ سبى النساء والذرية ، فجاء عنترة ذات يوم فلم يجد أحدًا من الحيّ ، فبهت وتحيّر ، حتى هتف به هاتف : أدرك الحيّ في موضع كذا ، فعمد إلى سلاحه فأخرجه ، وإلى مهره فأسرجه ، وتبع القوم الذين سبوا أهله فكرّ عليهم ، وفرّق جمعهم ، وقتل منهم ثمانية نفر ، فقالوا له : ما تريد ؟ قال : أريد العجوز السوداء والشيخ الذي معها (يعني أمه وأباه) فردوهما عليه . فقال له عمه : يا بني، كُرّ . فقال : العبد لا يكر ، ولكن يحلب ويصر فأعاد عليه القول

---

(١) كان عنترة معاصراً لامرئ القيس ، وقد لقيه ، وكان يلقب عنترة الفوارس ، وعنترة الفلحاء لتشقق شفتيه . وهناك عنترة من قبيلة طيء ، وعنترة ثالث مولى ثقيف .

(٢) على ما ذكره العلامة محمد الأمير في حاشيته على المغنى .

ثلاثا، وهو يجيبه كذلك ، فقال له عمه : إنك ابن أخي ، وقد زوجتك ابنتي عبلة ، فكر عليهم ، فصرع منهم عشرة ، فقالوا له : ما تريد ؟ قال: الشيخ والجارية (يعني عمَّه وابنته) فردوهما عليه ، ثم قال : إنه لقبيح أن أرجع عنكم وجيراني في أيديكم ، فأبَوْا ، فكرَّ عليهم حتى صرع منهم أربعين رجلاً قتلى وجرحى ، فردوا عليه جيرانه ، فأنشد هذه القصيدة التي منها الشاهد ومطلعها :

هَلْ غادَرَ الشعراءُ من مُتَرَدَّم ؟ ... أم هل عرفتَ الدارُ بعد تَوَهُّمِ ؟
يا دار عبلة بالجواء تكلّمي ... وعمى صباحًا دارَ عبلة ، واسْلَمي
ما راعني إلا حمولة أهلها ... وسط الديار تَسفَ حَبَّ الخَمْخَمِ
فيها اثنتان وأربعون حلوبةً ... سودًا كخافية الغراب الأسْحَمِ
أثنى عليَّ بما علمت فإنني ... سهل مخالقتي إذا لم أظْلَمِ
فإذا ظُلِمْتُ فإن ظُلْمي باسلٌ ... مُرٌّ مذاقَتُهُ كطعم العَلْقَمِ

حتى وصل إلى قوله (وهو الشاهد) :

ولقَدْ نَزَلتِ ، فَلا تَظُنّي غيرَهُ ... مِنّي بمـنزلة المحـبِّ المُكْرِمِ

والمعنى :

والله (حيث اللام الداخلة على قد في أول البيت مؤكدة القسم والواو والتي قبل اللام موطئة لهذا القسم) لقد نزلت مني ، وحللت من قلبي محلَّ من هو حَبيبٌ مُكْرَمٌ ، فتيقني ذلك ، ولا تظنّي غيره واقعًا .

والشاهد :

في قوله (فَلاَ تَظُنّي غَيْرَهُ) .

و(ظنّ) ـ وهي أحد أفعال القلوب ـ تنصب مفعولين ، وهذا النّصْب :

أ ـ واجب : إذا تقدمت (ظنّ) على معموليها ، ولم يأت ما يعلّق عملها ـ نحو (ظَنَنتُ زيدًا عالمًا) (وهذا مذهب البصريين) .

ب ـ وجائز : إذا توسطت (ظنّ) بين معموليها نحو (زيدًا ظننت عالمًا) أو تأخرت عنهما نحو (زَيدا عالما ظَنَنْتُ) .

جـ ـ ومُلغي : إذا تَوَسطت أو تأخرت ، فتقول (زيدٌ ظَننتُ عَالمٌ) و(زيدٌ عالِمٌ ظنَنْتُ) .

[والإلغاء ـ مع التأخير ـ أحْسَنُ من الإعمال ، والإعمال مع التوسط أحسن من الإلغاء . وقيل : هما سيّان] .

ويجوز حذف أحد المفعولين وبقاء الآخر إذا دلّ على ذلك دليل ، وعلى هذا جاء الشاهد ، حيث حذف المفعول الثاني لـ (تظن) اختصارًا مع قيام الدليل على ذلك المحذوف .

وتقدير الكلام : ولقد نزلت فلا تظني غيره واقعًا ، فحذف (واقعًا) ، وذلك الحذف جائز (خلافا لابن مُلْكون من علماء المغاربة) .

اللغة :

متردم : الموقع الذي يُرْقَعُ ويُصْلَح من : ردمتَ الشيء : إذا أصلحته وقوّمت ما وَهي منه .

الخَمْخَم : نبتٌ يُعْلفُ حبَّه للإبل إذا لم تجد ما تأكله من الكلأ .

خافية الغراب الأسحم :

الخافية : طرف ريش الجناحين مما يلي الظهر .

والأسحم : الأسود .

٩ ـ لَيْتَ شبابًا بُوعَ فاشتريت

ليس أشق على النفس من شعور بالضعف والعجز .

والضعف والعجز ملازمان للشيب والشيخوخة ، قال تعالى في أطوار خلق الإنسان : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾ (١) .

والناس ـ في استقبالهم الشيب ـ يتفاوتون تعقلا وتقبلا وشعورًا .

فمنهم من يلقاه ، وقد عركته السنين ، واجتمعت لديه حصائل الخبرات وقد حفظ الله عليه قواه ، فهو يدخل هذه المرحلة لبيبا مجربا كيسا فطنًا ، قال أحد هؤلاء ، وقد قيل له : لقد شبت :

الشَّيبُ إنْ يـأتي فـإن وَرَاءَهُ ... عُمُرٌ يـكـونُ خِـلالَه مُتَنَفَّسُ

لم ينتقص من المشيب قُلامَةً ... ولنحن إذْ يأتي ألبُّ وأكيَس(٢)

ومنهم من جمع إلى الشيب ، ضعف قوة ، وذهاب عزم ، فتشكي وبكى كقوله :

إن الثمانين ـ وبلغتها ... قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

---

(١) الآية : (٥٤) من سورة الروم .

(٢) القلامة : ما يقص من الظفر . ألب وأكيس : أعقل وأفطن .

قال أبو علي القالي في البيتين من أحسن ما قال في مدح الشيب .

وممن مدح المشيب من الشعراء فأحسن دعبل الخزاعي ، حيث قال :

أهلاً وسهلاً بالمشيب فإنه ... سمة العفيف وحلية المتحرّج

وكأن شيبي نظم درٍّ زاهرٍ ... في تاج ذي مُلك أغرَّ متوَّج

وقوله :

سئمت تكاليف الحياة ، ومن يعش ثمانين حولاً لا أب لك يسأم(١)

وشاعرنا (٢) من النوع الأخير ، كان عفيًا قويًا على زمن الشباب ، يلقي دلوه في البئر يمتح الماء ، ثم ينزعها لا يكاد يستشعر ثقلها ، ثم مضى به العمر ، وودعه الشباب ، ودخل المشيب يتأمل حاله ، ثم يتيقن ضعفه ، ولا يبقى له إلا أن يتحسر على شبابه ، ويتمنى لو كان يشتري لاشتراه قال :

يا قَوْمِ ، قَدْ حَوْقلتُ أو دَنَوْتُ وبَعضُ حيقال الرِّجال الموتُ
مَالي إذَا أجْذِبُها صَأيْتُ أكِبَرٌ قد عَالَني أوَ بِيتُ ؟
[ليت ، وَهَلْ ينفع شيئًا ليتُ ليتَ شبابًا بُوعَ فاشتريت] (٢)

المعنى :

ينادي قومه ـ على عادة الشعراء في افتتاح القول ـ أو مستعينًا بهم ، ويقول : يا قوم قد ضعفت وأصابني الكبر ، أو قاربتُ ذلك ، وبعض أحوال الكبر مفضية إلى الموت.

مالي إذا جَذَبْتُ الدلو من البئر صحت ، وصدر عني الأنين استثقالاً للدلو ، أفذلك راجع إلى كبر قهرني وغلبني وأعجزني ، أم لوجود زوجة

(١) هذا البيت من أبيات قالها زهير بن أبي سلمى في الحكمة .

(٢) اختلفوا في نسبة هذا الشعر ، فقالوا هو لرؤبة في صفة دلوه ، قال محيي الدين عبدالحميد « وقد راجعت ديوان أراجيزه فوجدت في زياداته أبياتا منها هذا البيت وذكر الأبيات ، وقد روى أبو على القالي في أماليه (١ / ٢٠ طبع الدار) البيتين السابقين على بيت الشاهد ولم ينسبهما ، وقال أبو عبيد البكري في التنبيه (٩٧) : « هذا راجز يصف جذبه للدلو ».١هـ. ولم يعينه .

في البيت (قال ذلك لأن العزب يكون أقوى وأشد) .

ليت ، وهل تنفع كلمة ليت قائلها شيئًا ، ليت سَنّ الشباب يباع فأشتريه، ولكن التمنى في مثل ذلك لا نفع فيه .

والشاهد :

هو في قوله : (بوع) :

فإنه فعل ثلاثي معتل العين ، فلما بناه للمجهول ضَمَّ فاءه (حرف الباء) وإخلاص ضم الفاء لغة جماعة من العرب منهم بنو دبير ، وبنو فقعس، ومنهم بعض تميم ، ومنهم ضبّة ، وحكيت هذه اللغة عن هذيل .

والقياس في الشاهد أن يقال (بيع) بكسر فاء الفعل (الباء) لأنه مبنى للمجهول من (باع) ، لكن من العرب يخفف هذا النوع بحذف حركة عينه .

ـ فإن كانت (واوًا) سلمت كما في (حُوكت) في رواية البيت الآتي:

حوكت على نيرين إذ تحاك   تختبط الشوك ولا تشاك

والقياس أن يقال (حيكت) .

وإن كانت (ياء) قُلبتْ واوًا لسكونها وانضمام ما قبلها ، كما في (بوع) فإن أصله (بُيِعَ) بضم الباء وكسر الياء ، فحذفت حركة الياء فصار (بُيْعَ) بضم الباء وسكون الياء ، فقلبت الياء واوًا لسكونها وانضمام ما قبلها ، فأصبحت (بُوع) .

واللغة :

الحوقلة : الكبر والضعف عن معاشرة النساء .

صأيت: صحت مأخوذ من قولهم صأي الفرخ إذا صاح صياحًا ضعيفًا .

أم بيت : أم زوجة وعيال يؤدي تحمل مؤنتهم إلى الضعف والهرم .

١٠ ـ تمرُّون الديار ولم تعوجوا

كل شيء يتعلق بالمحبوب محبوب .

ولو رأى المحبّ أن اكتحاله بغبار ما تطأ قدما المحبوب يسعد المحبوب لاكتحل الغبار عن رضا وطيب خاطر . .

أليس الشاعر المحبّ يقول :

أمرُّ على الديار ديار ليلى   أقبّل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حبّ الديار شغفن قلبي   ولكن حبُّ من سكن الديارا

وإذا ذهب الحبيب ، وبقيت دياره ـ أو آثارها ـ فلتلك الديار حرمة ومعزة، وكلٌّ مقدّر لهذه الديار مشارك للمحب في إعزازه لما ترك الحبيب ، ومن لم يفعل استحق المعاتبة والمخاصمة والمقاطعة .

قال شاعرنا [1] وفيه الشاهد :

مَتَى كانَ الخِيامُ بذي طلوح   سُقيتِ الغيثَ أيَّتُها الخِيامُ
تَنكَّر مِنَ مَعَالِمَهَا ، ومالَتْ   دَعَائمُهَا وَقَدْ بليتْ ثُمَامُ
أَقُولُ لِصُحبَتي وَقَد ارتَحَلْنَا   وَدَمْعُ العَيْنِ مُنْهَمِلٌ سِجَامُ
[تَمُرُّونَ الدِّيارَ وَلَمْ تَعُوجُوا   كَلاَمُكُمُو عَلَيَّ إِذَنْ حَرَامُ]
أقيموا إنما يَومٌ لِيَومٍ   ولكنّ الرفيق لهُ ذِمَامُ
بِنَفْسي مَنْ تَجنبه عَزِيز   عليَّ وَمَنْ زِيَادَتُهُ لِمَامُ
وَمَنْ أمسى وَأصبحُ لا أرَاهُ   وَيَطْرُقُني إذا هَجَعَ النِّيامُ .

(١) الشعر لجرير بن عطية الخطفي ، أحد شعراء النقائص ، وفيها يهجو الأخطل على ما كان بينهما من عداوة وملاحاة .

المعنى :

منذ متى كان تخييم الحبيبة وأهلها بذح طلوح ، ألا سقاك الغمام يا مساكن الحبيبة ، ودام عليك الخصب والخير .

لقد طال العهد بتلك المساكن ، وتغيرت معالمها ، ومالت دعائمها ، وطال الثمام ما طال المساكن .

أقول لأصحابي ، وقد ارتحلنا رواحلنا استعداداً للمغادرة ، ودمع العين منهل مسجوم مسكوب .

أتمرون على ديار المحبوبة ولم تميلوا لتقفوا عندها وتسلموا رعايته لعهدها وذمامها ، وإذ لم تفعلوا فمنى المقاطعة لكم ، وكلامكم حرام عليّ .

أقيموا وتمهلوا ولا تغادروا سريعا ، فإنما يوم تقفونه من أجلي يردّ بيوم مني أجعله لأجلكم ، فيوم ليوم ، والرفيق له حق ، ورعاية حاجة نفسه واجب .

أفدي بنفسي من تجنيه عليّ ، وظلمه لي عزيز على نفسي ، وإن كان هاجراً لا يزور إلا لماما .

يمر على المساء فلا أراه ، ويأتي الصباح فلا أراه ، حتى إذا هجع القيام جاءني طيفه .

والشاهد :

في قوله (تمرون الديارَ) :

حيث حذف الشاعر حرف الجر (الباء) ووصل الفعل (تَمرون) وهو فعل لازم بالمفعول به دون إدخال حرف الجر على المفعول والأصل أن يقول (تمرون بالديار) .

وحذف حرف الجر (كما فعل الشاعر في الشاهد) مقصور على السماع، فلا يقاس عليه.

وحول حرف الجر المحذوف خلاف :

أهو (الباء) في نحو (مررت بزيد) وهو الباء هنا للإلصاق المجازي ، أي ألصقت مروري بمكان يقرب من زيد (وعليه جماعة أهل النحو) .

أم المعنى (مررت على زيد) بدليل قوله تعالى : **﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين ﴾** .

واللغة :

ذو طلوح : اسم لموضع كانت به خيام المحبوبة .

الثمام : بضم الثاء : نبت ضعيف له خوص ،وربما حشي به ،وشدّ به خصاص البيوت ، والواحدة ثمامة (وله نور أو زهر شديد البياض) .

زيارته لمام : اللِّمَام : الزيارة المتباعدة المرات ، كأن تكون مرة كل أسبوع.

١١ ـ وليكف من شرّ سَمَاعُه

قد يظن الظان أن النساء العربيات لم يكن لهن حظ مما كان دائم الوقوع بين القبائل من حروب فيها غالب يسبي النساء والذراري ويأسر الرجال ويغنم الأموال ويقتل الرجال ـ قد يظن أنه لم يكن لهن من ذلك كله حظ إلا أن يقعن في أسر الغالب ، فيكنّ عاراً فوق عار الهزيمة .

لكن من نساء الجاهلية من كن يخرجن وراء الجيوش يحرضن الرجال على الحرب ، ويعدن بالوصل وطيب المعاشرة والودّ إن ثبت الرجال وانتصروا ، ويتوعدن بالشقاق والفراق إن فرّ الرجال وأدبروا فانهزموا ، ولعلنا لا نزال نذكر شعر ابنتي الفند الزمان في يوم (تحلاق اللمم) وهما تعدان وتتوعدان قائلتين ووراءهما أم مالك (كرمة بن ضلع) تغني :

نحن بنات طـــارق ... نمشي على النمارق
مشي القطيّ البـارق ... المسك في المفـــارق
إن تقبـلوا نعانـــق ... ونفرش النمــــارق
أو تدبـروا نفــارق ... فراق غـير وامـــق
عرس المولى طالـق ... والعار منه لاحـــق

والشواعر العربيات المفاخرات بالأنساب والأحساب معروفات ومنهن شاعرتنا التي تقول [وفي أبياتها الشاهد] [1] .

---

(١) هي عاتكة بنت عبد المطلب ، عمة الرسول ﷺ ـ اختلفوا في إسلامها والبيت الذي به الشاهد استشهد به ابن هشام في أوضح المسالك (٢٤٤) وابن عقيل في شرح الألفية (١٦٢) والأشموني (٤١٩) .

سائل بنا في قومنا ... وليكف من شرٍّ سماعهْ
قيسًا وما جمعوا لنا ... في مجمع باقٍ شناعهْ
فيه السَّنَوَّرُ والقنا ... والكبش ملتمعٌ قِناعهْ
بعكاظ يعشي الناظريـ ... ـن إذا هموا لمحوا شعاعهْ
فيه قتلنا مالكًا ... قَسْرًا وأسلمه رَعاعُهْ
ومجندلا غادرنه ... بالقاع تنهسه سِباعهْ

والمعنى :

تقول مفاخرة :

اسأل عنا - إن كنت تجهل من نحن - في أقوامنا ، وليكفك من شرّ أن تسمع به دون أن تعاينه أو تعالجه .

سَلْ قيسًا ، وما جمعوه لنا من جمع لم يبق بعد المعركة لهم منه إلا شناعهُ.

حيث جُمِعَت الأسلحة والألبسة التي تلبس في الحروب من دروع وغيرها، والتمعت الأقنعة في أتون المعركة .

وذلك في سوق عكاظ حيث أعشى الشعاع المنبعث من أقنعة المقاتلين وبين الكباش التي ترمي الحصون أعين الناظرين .

في هذا اليوم قتلنا مالكًا قهراً ، وقد فر الرعاع من حوله وأسلموه ، وتركنا غيره مطروحًا على الأرض تنهشه السباع.

والشاهد :

هو في قولها (يعشي ... لمحوا شعاعه) حيث تنازع كل من الفعلين (يعشي) و(لمحوا) كلمة (شعاعه) الفعل الأول يطلبها فاعلاً ، والفعل

الثاني يطلبها مفعولاً .

وقد أعملت الأول ، (بدليل أن كلمة شعاعهُ جاءت مرفوعة) ، وأعملت الفعل الثاني في ضميره (حيث كان يجب أن تقول لمحوه) ثم حذفت الضمير (الهاء العائد على المفعول به) لضرورة الشعر .

وأصل الكلام قبل تقديم العاملين (يعشى الناظرين شعاعهُ إذا هم لمحوه) ثم حذفت الهاء من كلمة (لمحوه) فصار كما ترى في البيت .

اللغة :

شناعه : الشنائع ، والشناعة : شدة القُبح .

السَّنَوَّر : جملة السلاح ، ولبوس من سير يلبس في الحرب كالدرع .

الكبش : آلة من آلات الحرب كانت تستعمل في الحصار لقذف الحصون.

الرعاع : سفلة الناس .

تنهسه : تنزع لحمه .

١٢ ـ واغفر عَوْرَاء الكريم تكرُّمًا

إذا اكتمل العقل ، اكتملت الخصال ، وكرمت الأخلاق ، والحلم آية ذلك، لذا قالوا : الحلم سيد الأخلاق .

ولا يخلو إنسان ـ وبخاصة إن كان نابه الذكر ، مسموع الاسم والصيت من حُسَّاد ، والألسنة تترجم الحسد في فلتاتها ، والكامل الحليم من إذا مسّه سفيه بما يجرحه ، ترفع عن الرد تكريمًا لنفسه ، وإذا بدرت من الكريم نحوه منقصة غفرها ، لأنه لا يخلو امرؤ من سقطة ، ومن عاب اليوم ـ إذا غفرنا زلته ـ ربما أحسن إلينا غدًا .

وشاعرنا [وفي أبياته الشاهد] يقول في قصيدة مطلعها :

أتعرف أطلالاً ونؤيا مهدمًا   كخطك في رق كتابًا منمنمًا

ومنها :

فَنَفسَك أكْرِمهَا ، فإنَّكَ إنْ تَهُن   عَلَيْكَ فَلَنْ تَلْقَى لَهَا الدَّهْرَ مُكْرِمًا
وَعَوْرَاءَ قَدْ أعْرَضْتُ عنهَا فلم تضر   وَذِي أوَدٍ قوَّمتهُ فتقوَّمَا
[وَاْغفِرُ عَوْرَاءَ الكريم ادِّخَارَهُ   وَأعْرِضُ عن شتم اللئيم تَكَرُّما
وَلاَ أخْذُلُ المَوْلَى وإن كان خاذلاً   وَلا أشْتُم ابن القمّ إن كان مفحمًا
وَلاَ زَادَنِي عَنْهُ غِنَايَ تَبَاعُدًا   وَإنْ كان ذا نقصٍ من المال مُعدمًا

المعنى :

أكرم نفسك، بتعلقك بالمحامد ، وترفعك عن النقائص ، فإنك إن هانت

عليك نفسك ـ فأوردتها موارد الإهانة ـ لم تجد القمر كُلَّه معبر بكرمك.

ورب كلمة قبيحة صدرت من أحدهم ضدي قد أعرضت عنها كأني لم أسمعها فلم تضرني ، ورب ذي اعوجاج وانحراف عليَّ قوّمته فاستقام .

فإذا كان العيب والمنقصة من شخص كريم غفرت عوراءه ادخارًا له فربما كان اليوم مسيئًا وغدا محسنًا ، أما اللئيم العرض فإنه إن عاب أو شتم أعرضت عنه ، ارتفاعًا بنفسي عن التدني إلى مستواه ، ومجاراته في شتمه .

ومن كان ذا ولاء لي لا أخذله ولا أتخلّى عنه ، وإن خذلني وتولى عني، أما أهل قرابتي إذا عادوْني وشتمني منهم شاتم ـ كابن العم مثلا ـ فإني لا أرد على شتمه مهما بالغ الشتم .

ولا يزيدني غناي وكثرة مالي تباعدًا عنه أو تعاليًا عليه ، حتى وإن كان فقيرًا ، ناقص المال معدما .

والشاهد [1] :

في قوله (ادّخاره) :

فقد وقعت هذه الكلمة مفعولاً لأجله (مفعولا له) .

والمفعول له هو : المصدر ، المفهم علة (الموضح سبب الفعل) المشارك لعامله (للفعل) في الوقت ، والفاعل .

مثال ذلك : ضربت ابني تأديبًا له .

فتأديبًا هو المصدر (المفعول لأجله أو له) .

وهو مفهم لعلة الضرب وهي التأديب .

---

(١) في البيت شاهد آخر هو (تكرما) فهو مفعول لأجله ، وهو نكرة غير معرف لا بأل ولا بالإضافة ، فقد جاء مستوفيًا الشروط ، لذا جاء منصوبا .

وهو مشارك للعامل (الفعل ضربت) في الوقت والفاعل ، وحكمه (إذا توافرت نية : المصدرية وإبانة التعليل ، واتحاده مع فاعله في الوقت والفاعل) جاز نصبه .

فإن فقد شرطا من هذه الشروط الثلاثة تعيّن (وجب) جرّه بحرف التعليل (اللام) أو (من) أو (في) أو (الباء) .

والشاهد :

(ادّخاره) وقع مفعولاً لأجله منصوبا مع أنه مضاف للضمير ، ولو جرّه باللام فقال : « لادخاره » لكان سائغًا مقبولا (ونصبه ، وجرّه سواء خلافا لمن قال إن المفعول لأجله لا يكون معرفة لا بالإضافة ، ولا بأل) .

واللغة :

النؤي : حفيرة حول الخباء حتى لا يدخله ماء المطر .

عوراء : هي الكلمة القبيحة .

ذي أود : صاحب اعوجاج عليّ في القول أوالفعل .

قوّمته : عدلت سلوكه ، أو عدلت اعوجاجه .

١٣ ـ دِنّاهم كما دانو

العدل أساس الملك .

مقولة تبقى صحيحة ما بقيت دنيا ، وبقى على وجه الأرض شعوب وممالك لكن وائل بن ربيعة بن الحرث الملقب بكليب غفل عنها فهلك .

ذلك أنه تملك على بني معد ، وقاتل جموع اليمن وهزمهم ، وعظم شأنه ، وبقى زمانًا من الدهر ، ثم داخله زهو شديد ، وبغى على قومه ، فصار يحمى عليهم مواقع السحاب فلا يرعى حماه ، ويقول وحْشُ أرض كذا في جواري فلا يصاد ، ولا ترد إبل مع إبله ، ولا توقد نار من ناره .

واتفق أن نزل رجل جِرْميّ على امرأة تدعى البسوس ، فرعت ناقته أرضا يحيمها كليب ، فضرب الناقة في ضرعها فرجعت إلى صاحبها مجروحة ترغو، فصاح : واذلاه فوضعت البسوس [1] يدها على رأسها وصاحت : واذلاه ، وسمع جساس بن مرة صياح خالته البسوس ، وعرف السبب ، فوثب على كليب فطعنه بالرمح .

وثارت الحرب بين بكر (قوم جساس) وبني تغلب قوم كليب ، ودامت أربعين عامًا ، وكانت بين الجيشين أيام ووقائع هلك فيها من هلك وفنى من فنى ، حتى أدركت بنو تغلب ثأرها بقتل جساس ، فأرسل أبوه مره إلى مهلهل (أخي كليب) أنّ قد أدركت ثأرك فاكففـه فلم يرجع مهلهل .

بَغْيٌ ، وحمية جاهلية ، واستمرار في عدوان وغَيّ .

---

(١) جاء في الصحاح أن الناقة كانت للبسوس ، وأن كليبا رأى الناقة في حماه ، وقد كسرت بيض طير كان كليب قد أجاره ، فرمى ضرعها بسهم .

وكان من بكر شهل بن شيبان بن ربيعة ، الملقب بالفند الزماني (١) ، فلما رأى بَغْيَ بني تغلب ، وعدم رجوعهم عن القتال قال (وفيه الشاهد) :

صَفَحْنَا عَنْ بني ذُهْلٍ(٢) وَقُلْنا القومُ إخوانُ
عَسَى الأيامُ أن يَرْجِعـ ـن قَوْمًا كالذي كانُوا
فَلَمَّا صَرَّح الشَّر فأمْسَى وهو عُرْيان
[ولَمْ يَبْقَ سِوى العدوان دِنَّاهُمْ كما دَانُوا]
مشينا مِشْيَةَ الليث غَدَا والليث غَضْبَانُ
بِضَرْبٍ فيه تَوْهِينٌ وتخضيع وإقْرَانُ
وَطَعْنٍ كفم الزق غَدَا والزقّ مَلآنُ
وبعض الحِلم عِنْدَ الجَهْلِ للذِّلة إذْعَانُ
وفي الشرّ نجاة حِينَ لا يُنجيك إنسان

المعنى :

لقد صفحنا عني بني ذهل ، وقلنا القوم إخواننا ، وهم لذلك أولى بالصفح منا .

وقلنا عسى أن يرجع القوم مع الأيام أقارب كالذين كانوا يرعون الجوار والرحم .

فلما بدا الشر منهم واضحًا صريحًا ، وبدا فيه العدوان منهم علينا بارزة

---

(١) ليس في العرب من اسمه شهل سواه (كما قالوا) ، وقد سمي (الفند) لأنه قال لأصحابه في يوم حرب : استندوا إليّ فإني لكم فند ، والفند : القطعة العظيمة من الجبل ، وقيل غير ذلك .

(٢) المراد خصوص بني تغلب .

كأنها عريانة لا غطاء لها .

ولم يبق سوى أن نرد على عدواتهم وبغيهم بعدوان مماثل ، جازيناهم كما جازونا أو عاقبناهم بمثل ما اعتدوا به علينا .

مشينا إليهم مشية الليث ، لا في حال رضاه وسروره ، بل في حال ثورته وغضبه .

وضربناهم ضربا أوهن قواهم ، وأخضعهم وأذل شجعانهم وطعنا فيهم طعنات واسعة الأفواه ، تتدفق منها الدماء تدفق الخمر من فم الزقّ الملآن.

فعلنا ذلك ، ولم نسكت على شرّ بني تغلب لأن الحلم في مقابلة جهل الطرف الآخر نوع من الإذعان والرضا بالمذلة .

وفي ارتكابك الشر أحيانًا سبب لنجاتك من شرّ يواجهك حين لا يملك إنسان آخر أن ينجيك منه .

والشاهد :

هو في قوله (سِوَى العدوان) :

حيث وقعت (سِوَى) فاعلا للفعل (يبق) وخرجت بذلك عن الظرفية :

ومذهب سيبويه والفراء وغيرهما في (سِوَى) (١) أنها لا تكون إلا ظرفًا، فإذا قُلتَ : « قام القومُ سِوَى زيد » فـ « سوى » عندهم منصوبة على الظرفية، وهي مشعرة بالاستثناء ، ولاً تخرج عندهم عن الظرفية إلا في ضرورة الشعر .

(١) المشهور في « سوى» كسْرُ السين ، وقصر الألف ، ومن العرب من يفتح سينها ويمدّ (سَوَاء) ومنهم من يضم سينها ويقصر (سُوَى) ، ومنهم من يكسر سينها ويمد (سِوَاء)، وهذه اللغة الأخيرة ، لم يذكرها ابن مالك ، وقل من ذكرها من العرب ، وممن ذكرها الفاسي في شرح الشاطبية .

أما ابن مالك في (الألفية) فاختار أن تُعامل (سوى) معاملة « غير »[١] في الرفع والنصب والجرّ .

ومن أمثلة استعمالها مجرورة قوله ﷺ : « **سألت ربي ألا يسلط على أمتي عدواً من سوَى أنفسها** » وقوله ﷺ : «**ما أنتم في سواكم من الأمم إلا كالشعرة البيضاء في الثور الأسود ، أو الشعرة السوداء في الثور الأبيض**» .

واللغة :

صفحنا : عفونا ، والصفح : العفو ، وأصله من قولهم : أعرضت صفحا عن هذا الأمر ، إذا تركته ووليته جانبك .

بني ذهل : يروي في مكانها (بني هند) ، وهي هند بنت مرة بن أخت تميم وهي أم « بكر » و« تغلب » ابني « وائل» .

العدوان : الظلم الصريح ، ولذا قال : فلما صرح العدوان .

دناهم : جازيناهم ، وفعلنا بهم مثل الذي فعلوا بنا من الإساءة .

الزق أو الدنّ : وعاء الخمر .

---

(١) يرى ابن مالك معاملة سوى معاملة (غير) ، والمعروف في (غير) :
- أن حكم المستثنى بها الجرّ لإضافتها إليه .
- وأنها (أي غير) تعرب بما كان يعرب به المستثنى مع (إلا) فتقول : (قام القوم غير زيد) كقولك (قام القوم إلا زيداً) و(ما قام أحد غير زيد ، وغيرَ زيد) كقولك (قام القوم إلا زيدٌ ، وإلا زيداً) بأحد الوجهين الاتباع أو النصب ، والمختار الاتباع ، و(ما قام غيرُ زيد) وجوبًا ، كقولك (ما قام إلا زيدٌ) برفع المستثنى وجوبًا .

١٤ ـ عمامته بين الرجال لواء

ليس كالنسب صفحة . تطهر وتصفو ، فتغدو لامعةَ لألاءة ، وتبقى محلّ الفخر ، ترتفع بها الهامة ، وترفع آية فخار ، وعلمًا على مجد .

ويدخلها الدخل ، فتبقى مطعنًا ومغمزًا ، تسفّ بمن تنسب إليه أو ينسب إليها ، تطأطأ منها الرأس ، ويخزي لها الجبين .

ومهما اجتمع للرجل من صفات الخَلْق والخلق : كريما حسنًا فعلا به أو دميمًا قبيحا فأهين به وعيّر ، فإن صفحة النسب تبقى رأس المفاخر (إن طاهرة) أو رأس المخازي (إن كان بها دخل) .

وشاعرنا (وفي أبياته الشاهد) رزق غلامًا ، فأعجبه قده وقوامه وأطربته قامته وهيئته ، فلما فاخر بذلك ، وتوهم أن يكون هناك فلن يعارض مغالاته في المفاخرة بابنه ، قال : لا عجب ولا مشاحة فيما أقول ، فإنه طاهر العرض، نقي النسب ، لم يعفّر أصله ، ولم يمسس ما عونه الفساد ، قال (١) :

لاَ تَعْذِ لي في حَنْدُجٍ إنَّ حُنْدُجًا وليثَ عِفِرِّين لَـدَىَّ سَوَاءُ
حَمَيْتُ علَى العُهّار أطهارُ أمّه وبَعْضُ الرِّجَالِ المدَّعِين غُثَاءُ
[فَجَاءت بِهِ سبْط العظام كأنّما عِمَامَتُهُ بَيْنَ الرِّجَالِ لِوَاءُ]

المعنى :

لا تعذلي أو تلوحي في افتخاري بابني حندج ، فإن ابني حندجا وليث المأسدة (الأرض المليئة بالأسود والسباع) سواء بسواء .

---

(١) لم تعرف المصادر الشاعر ، وإنما قالوا : هو الرجل من العرب في ابن له .

لقد حميت أمه من أن يصيبها فَسَاد مفسد ، أو سعى فاحش وبعض الرجال الذي يُدْعَوْن ويُنسبون إلى أنساب وأحساب عالية غثاء لا غناء فيهم ولا وزن لهم .

لذا جاءت به أمه سبط العظام حسن القد والقامة ، كأن ما يضعه على رأسه من عمامة أو مغفر أو بيضة (ما تحمى به الرأس في الحروب من ضرب السيوف) ـ علم يشاهد من بعيد .

والشاهد :

هو في قوله (سبط العظام) :

حيث أنه حال غير منتقلة أي وصف ملازم للمتصف به ، لأن السبوطة (وهي حسن القدّ والاستواء) لا تفارقه ولاتنفكّ عنه ، وهذا قليل .

والكثير في الحال أن تكون منتقلة (أي غير ثابتة ولا ملازمة لصاحبها) كقولك : جاء زيد راكبا ، فـ (راكبا) وصف منتقل لا يكون ملازما دائما لزيد لجواز مجيئه ماشيا ، أو محمولاً على الأكتاف .

اللغة :

حُنْدُجٌ : (على وزن قُنْفُذ) اسم رجل (كما في القاموس والصحاح)، ويطلق كذلك على بَقْلَة تنبت في الرمل (كما ذكر السهيلي في الروض الأنف) .

عِفِرِّين : مأسدة (أرض تكثر بها الأسود) وليث عفرين هو الأسد .

العُهَّار : جمع عاهر ، من العَهْر (بفتح العين أو كسرها وسكون الهاء) أو تحريكها مثل نَهْر ونَهَر) وهو الزنا ، يقال عَهَر المرأة : أتاها للفجور ليلا أو نهاراً .

الأطهار : أيام طهر المرأة التي تخلو فيها من الحيض (وهي زمن غشيانها

واستعدادها للحمل) .

الغثاء : هو في الأصل ما يحمله السيل من القماش (أي الشيء الذي يجمع من هاهنا وهاهنا) ولعل المراد أن هو الأشخاص المدعون مجموعون من نطف شتى .

سبط العظام : حسن القد والاستواء ، ممتد القامة .

العمامة : المغفر ، أو البيضة ، وما يلف على الرأس .

لواء : هو ما دون الراية ، ويجمع على ألوية .

١٥ ـ ولاَ سدّ فقري مثلُ ما ملكت يدي

الإنسان في حال الرخاء عطاء ، على الأقل هذا هو الأصل . .

وهو عن غيره في غناء ، لأنّ امتلاء يده بالمال يغنيه عن أن يمدها للسؤال وامتلاء فمه بالنعمة يكفيه مرارة السؤال .

فإذا ما نزلت بالإنسان الحاجة ، تفقد ما يملكه ، فإن لم يجد ألجأته الحاجة إلى السؤال .

وصحيح أن المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه ، وأنه عند الشدائد تعرف الإخوان .

لكن أسرع شيء إلى نجدة الإنسان إذا نزلت به الحاجة هو ما في يده مما يملك ، فقد يخذله كل من يناديه ويطلب منه ، لكن المال الذي في اليد هو أسرع من يجيب الطلب ويلبي النداء ، لذا قال الشاعر :

كلُّ النّداءِ إذا ناديتُ يخذلنُي   إلا نِدَائِي إذا ناديتُ : يا مالي

تلك حقيقة أنصع من بياض النهار .

وشاعرنا يضيف إلى ذلك المعنى حقيقة أخرى أهم تماثل السابقة قوةً وصدقا .

يقول (وهو الشاهد) :

وَمَا لامَ نفسْي مِثْلَهَا لي لائِمٌ   ولا سَدَّ فَقْرِي مِثْلُ مَا مَلَكَتْ يدي

والمعنى :

إني لم أجد لنفسي لائما ، ولا معنّفًا على الأخطاء مثل نفسي ، فكفى

بها في ذلك مؤدبا ومعذبًا ، ولم يزل فقري ويسدّ خلتي مني احتجت شيئًا مثل ما ملكت يداى من المال ، أما الطمع فيما يملك الغير فلا يجلب إلا الضير .

والشاهد :

هو في قوله (مِثْلَهَا) :

حيث جاءت حالاً منصوبة ، وهي حال من نكرة هي (لائم) وحق صاحب الحال أن يكون معرفةً ، ولا ينكّر - في الغالب إلا عند وجود مسوغ، وهو أحد الأمور الآتية :

- أن يتقدم الحال على النكرة ، نحو : « فيها قائما رَجُلٌ » ولو أخرت لقلت : « فيها رجلٌ قائم » فتتحول كلمة (قائم) من حال منصوبة في الجملة الأولى ، إلى صفة مرفوعة في الجملة الثانية .

ومن هذا الأمر الشاهد الذي معنا ، حيث تقدمت كلمة (مثل) فجاءت حالاً منصوبة ، على كلمة (لائم) وهي صاحب الحال وقد وردت نكرة .

- أن تخصص النكرة بوصف ، كقوله تعالى : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ. أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا ﴾ [الدخان : ٤ ، ٥] .

أو تخصص بإضافة ، كقوله تعالى : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾ [فصلت : ١٠] .

- أن تقع النكرة بعد :

أ - نفي ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [الحجر : ٤] إذ أن ﴿ لَهَا كِتَابٌ ﴾ جملة في موضع نصب حال .

ب - أو نهي ، كقوله : (لا يبغ امرؤ على امرئ مستسهلا) .

جـ ـ أو استفهام ، كقوله الشاعر :

يا صاح ، هل صُمَّ عيش (باقيًا) فترى لنفسك العذر في إبعادها الأملا

اللغة :

نفسي : النفس تطلق على معان : منها الروح ، يقال : خرجت نفسه أي روحه وهي بهذا المعنى مؤنثة لا غير ، وإن أريد بها الإنسان فمذكر وجمعه (أنْفُس) على معنى أشخاص ؛ ومن هنا قيل : ثلاث أنفس وثلاثة أنفس ، والأظهر أن الراء بها في البيت (الشاهد) هو الشخص نفسه.

لائم : اسم فاعل من (لام / يلوم) .

وقد جاءت كلمة (لائم) مهموزة العين لما هو مقرر من أن عين اسم الفاعل إذا كانت [واوًا] (كما في لأوم الذي هو من لوَم) .

وقد أعلت الواو فصارت (لام) أو كانت ياء ، كما في بايع الذي هو من بيع فأعلت الياء فصارت (باع) ، فإنها (أي عين اسم الفاعل) تبدل همزة ؛ فنقول : (لائم) وليس (لاوم) ونقول (بائع) وليس (بايع) ، وهذا قياس مطرد .

فإن لم تكن عين الفعل (كما في عَوِرَ) لم تبدل عين اسم الفاعل همزة فنقول (عاور) وليس (عائر) كما تقول من (عَيِّن) : (عاين) وليس (عائن) .

١٦ ـ لَعَلَّ أبي المغوار منك قريب

الموت حياة وسطى بين حياتين ، إنه برزخ بين الدنيا والآخرة .

والموتى في قبورهم ـ على ما يعلم الله من أحوالهم ـ يشعرون ويدركون .

ولعلّ ميتا يكون قد بليت عظامه ، ولا يزال متعلق القلب به ، شديدُ الوجد عليه من الأحياء يتخيله يسمع ، ويجيب منه ينادي .

ولعلّ بعضًا آخر من الناس قد آمن أن المسافة بين بطن الأرض وظهرها ـ بعدًا بين الأحياء والأموات ـ أشد تباعدًا مما بين المشرقين فقال :

الشَّرْقَ مِمّ الغربِ أقْربُ مَطْلبًا   مِنْ بُعْد هَذِي الخَمْسَةِ الأشْبَارِ

ومن الرعيل الأول ـ شديد التعلق بالأموات والتوجّد عليهم ـ شاعرنا ، الذي يقول (ومن أبياته الشاهد) :

وَدَاعٍ دَعَـا : يَا مَنْ يجيب إلى النَّدَا   فَلَمْ يَستجبه عِنْدَ ذَاكَ مُجِيبُ

[فَقُلْت ادْع أُخرَى، وارفع الصَّوتَ جَهْرَةً   لَعَلَّ أبي المغوار مِنْك قريب]

يُجبْك كَمَا قَدْ كَانَ يَفْعَلُ إنَّه   مُجيبٌ لأبوَابِ العُلا وَطَلُوبُ (١)

المعنى :

ربّ داعٍ ينادي : يا من يجيب إلى الندا ، يا من يسمع طلب الأمل في جود الأجواد فيستجيب لندائي ويعطيني ، فلم يستجب له عند سماع هذا النداء أحد من الأحياء .

---

(١) الأبيات لكعب بن سعد الغنوي من قصيدة مستجادة ، يرثي فيها أخاه أبا المغوار ، واسمه هَرَم ، وقيل اسم أبي المغوار شبيب ، ومن العلماء من ينسب هذه الأبيات لسهم الغنوي أخي كعب وأبي المغوار ، والصواب عند الثقات أنها لكعب .

فقلت له : ادع مرة أخرى ، وارفع صوتك جهيرا عاليا ، لعل أخي أبا المغوار الراقد في قبره قريب منك ، يسمع نداءك ، وطلبك العطاء .

فإن يسمع يجبك ، كما قد كان يفعل إبان حياته ، إنه مجيب إلى كل باب يفتح للوصول إلى العلا ، بل وطلوب لذا غير منتظر أن يسمع نداءً ليستجيب .

والشاهد :

في قوله (لعل) :

حيث جرّتْ مابعدها ، وهو كلمة (أبي) على لغة عُقَيْل .

والمشهور في (لَعّل) أنها حرف ناسخ من أخوات (إن) ، وهي (أي لعل) للترجي (وهو لطلب الممكن المحبوب) كقولك (لعلَّ الفرج قريب) أو للإشفاق (وهو عكس الترجي فيكون في المكروه) كقولك (لعل العدو مهاجمنا غدا) . وهي هنا تعمل عمل إن ، فتدخل على الجملة الاسمية فتنصب الاسم وترفع الخبر .

ولكن (لعل) في الشاهد الذي معنّا جاءت على غير ماسبق .

(فلعل) في الشاهد حرف ترَجٍ وجَرٍ شبيه بالزائد [١] ، وقد دخلت على

---

(١) حرف الجر :

إما أن يفيد معنى خاصًا ، ويكون له متعلق ، فهذا هو الذي يعقد له النحاة باب «حروف الجرّ » وهي عشرون حرفا تطلب في بابها من كتب النحو .

وإما الا يفيد معنى خاصًا ، ولا يكون له متعلق ، وهو حرف الجرّ الزائد ، كالباء في قولك (بحسبك درهم) إذ أصلها (حسبك درهم) و (مِنْ) في قولك : (ما زارني من أحد) إذ أصلها (ما زارني أحدٌ) .

وإما أن يفيد معنى خاصًا ، ولا يكون له متعلق ، وهو الشبيه بالزائد كما في (العلل) في الشاهد ، وبيت الشعر الذي ذكرته لك في الشرح، وإنما أشبه ذلك الحرفُ الحرف =

الجملة (أبو المغوار منك قريب) فجرت كلمة (أبو) فجاءت على صورتها في البيت (أبي المغوار) ، وهذا في لغة عقيل وحدها ، ومثله قول الشاعر:

لَعَلَّ اللهِ فَضّلكُم عَلَيْنَا … بشيء ، إن أمكمٌ شَرِيمُ[1]

فقد جرَّ الشاعر لفظ الجلالة (وهو مبتدأ) بالحرف (لعل) [2][*].

ولعقيل في (لام) لعل الأولى لغتان : الإثبات (لعل) والحذف (عَلّ) وفي لامها الأخيرة لغتان : الفتح والكسر .

واللغة :

الندا : الجود ، والكرم ، والعطاء .

طلوب : وزن (فعول) صيغة مبالغة في الطلب .

= الزائدَ في أنه لا متعلق له ، وأشبه حرف الجر الأصلي في الدلالة على معنى خاص (كالترجي في لعل ، والتقليل في رب) .

(١) هذا البيت يروي كشاهد دون ذكر نسبته لقائل معين ، وكلمة (شريم) المذكورة في البيت: صفة للمرأة المفضاة ، أي التي اتحد مسلكاها (مخرجاها) ويقال فيها : (شرماء) و(شروم) أيضا.

(٢) اختلف البصريون مع غيرهم في توجيه البيت ، فقالوا : (أبي) مجرور باللام وأصل اللفظ (لعلّ لأبي المغوار) فخذفت اللام لتوالي الأمثال ، واللام ومجرورها متعلق بمحذوف خبر مقدم ، وقريب بمعنى (قَرَابَةٌ) مبتدأ مؤخر ، و الأصل : لعل قرابةٌ منك كائنة لأبي المغوار فيجيب دعوتك . ولعلّ حينئذ اسمها ضمير الشأن محذوف ، والجملة بعدها في محل رفع خبرها .

(*) قد روى هذا البيت (لعلّ أبا المغوار منك قريب) فتكون (لعل) من أخوات (إنّ) .

١٧ ـ لَهُنَّ نَئِيجُ

إذا لم يعمل العقل أو لم يجد مسلكا لعمل عَمِلَ الخيال .

وإذا غابت الحقيقة العلمية ، حل التفسير الخيالي أو الأسطوري محلّها ، وقد كنا ـ على زمن الطفولة ـ في الريف ، نسأل آباءنا الأميين ـ رحم الله الجميع ـ عن تفسير ما نسمع من رعد وما نرى من برق ، فنتلقى إجابة هي الوحيدة المتاحة ، وهي الصورة المشتقة من معطيات البيئة إذ يقول « إن جمل الشتاء يركض خلف جمل الصيف » .

وقد كان للعرب في جاهليتهم تفسيرات وتصورات للظواهر الطبيعية المؤثرة في حياتهم ، وبخاصة الرياح والسحب وما حملن من ماء فأمطرن وسقين .

ومما اعتقدت العرب في السحاب ، أن السحاب تدنو من البحر الملح في أماكن مخصوصة ، فتمتد منها خراطيم عظيمة كخراطيم الإبل ، فتشرب بها من مائه فيسمع لها عند ذلك صوت مزعج ، ثم تصعد إلى الجوّ وترتفع ، فيلطف ذلك الماء ويعذُب بإذن الله تعالى في زمن صعودها ، ثم تمطره حيث شاء الله .

وتأسيسًا على الاعتقاد السابق قال شاعرنا[1] (وفيه الشاهد) :

سَقَى أمَّ عَمْرو كُلَّ آخِـرِ لَيْلَـةٍ   حَنَاتِم سُودٌ مَاؤُهن ثَجِيـجُ
إذَا هَمّ بالإقْلاعِ هَبّتْ لَهُ الصبَّا   فأعْقَبَ نَشْءٌ بَعْدَهَا وَخُرُوجُ

(١) قائله هو شاعر هذيل المعروف أبو ذؤيب .
واعترف أن هذا الشاهد (حين كان يورد في الدروس دون شرح أو سياق) كان يعنيني، ولعله من أبرز أسباب تأليف هذا الكتاب .

شَرِبْن بماءِ البَحْرِ ثُمّ تَرَفَّعَتْ مَتى لُجَجٍ خُضْرٍ ، لَهُنّ نئيجُ

المعنى :

يدعو الشاعر لامرأة تسمى أم عمرو قائلا :

سقى أمَّ عمرو في آخر كل ليلة سحائب سوداء ممتلئة بالماء كأنهن الجرار، ماؤهن سائل منصب.

سحائب إذا همت بالارتفاع في الجوّ ، هبت لها ريح الصبا ، ليعذب ماءها ويبرد ، فيكون منها مطر يسقي أم عمرو .

سحائب شربت ماء البحر الملح ، ثم ارتفعت إلى أعلى ، وقد امتلأت ماء من لجج خضر ، وللسحب حال امتصاصها الماء صوت عال مرتفع .

والشاهد :

هو في قوله (متى لُجَجٍ) :

حيث جرت متى كلمة (لُجَج) على لغة هُذَيْل (وهم قوم الشاعر) وهم يجرُّون بها دائما ، يقولون (أخرجها مَتى كُمِّه) أي (مِنْ كُمِّه) فهي عندهم بمعنى (من) الابتدائية .

والأصل في (مَتَى) أنها اسم استفهام له الصدارة ، يستفهم به عن الزمن كقولك (مَتَى وصولك ؟) فتقول (غداً صباحًا) مثلا .

وهي (أي متى) اسم استفهام متضمن معنى الشرط في مثل قولك (مَتَى تَقُمْ أقُمْ) .

لكن الشاعر (في الشاهد) استخدمها حرف جَرٍ على لغة قومه .

اللغة :

حناتم : جمع حَنْتَمَة ، وأصلها الجَرّة الخضراء ، وأراد السحاب .

سود : جمع سوداء ، ويقصد أنها ممتلئة بالماء .

ثجيج : سائل منصب (يريدها تهطل لا تقطر) .

شربن (بماء البحر) إذا بقيت شرب على معناها الأصلي تكون (الباء) في (بماء البحر) بمعنى (من) الابتدائية (أي شربن من ماء البحر) وإن ضُمِّنت (شربن) معنى (روين) كانت (الباء) في (بماء البحر) سببية .

ترفعت : تصاعدت ، وتباعدت ، وتوسعت .

لُجج : جمع لجة (وزن غُرْفَة) ، واللجة : معظم الماء .

نئيج : صوت عال مرتفع .

١٨ ـ لَوْلَايَ طِحْتَ

تكثر في الأدب العربي ـ وبخاصة الشعر ـ صورة الرجل الشهم ذي الأريحية الذي يحمل غيره ، ويخصّ بنداه أقاربه ومن والاه ، ثم لاتجدهم عليه إلا أذى، وخذلانا ، وشتما وعيبا .

ويملك مثل ذلك الرجل ـ في عتبه على أمثال هؤلاء الجاحدين ـ إلا أن يذكرهم أياديه التي سلفت لهم ، وأفضاله التي سبقت إليهم ، وهو ـ مع المرارة التي تنضح من كلماته ـ عفّ ، لا يفحش ، ولا يقول مقذعًا .

من هؤلاء شاعرنا [١] ـ الذي يقول (وفي أبياته الشاهد) :

تُكَاشِرُني كُرْهًا كأنك ناصحٌ ... وَعَيْنُك تُبْدي أنّ صَدْرك لي دَوِي
لِسانكَ مَاذِيّ ، وَعَيْنُكَ عَلْقَمٌ ... وَشَرك مبسوط ، وَخَيْرك مُنْطوِي
عَدُوّك يَخْشَى صَوْلَتي إنْ لقيته ... وأنت عَدُوّي ، ليس ذاك بمستوى
[وكَمْ مَوْطنٍ لولاي طحتَ كما هَوَى ... بِأجْرَامِهِ مَنْ قمّة النيْق مُنْهَوِى]
جَمَعْتَ فحشًا وغيبةً ونميمةً ... ثلاث خِصَالٍ لَسْت عنها بمرعوي

المعنى :

تُبدي لي أسنانَك كأنك تبتسم ، كأنك خالص المودّة ، صافي النصح لي بينما تظهر عينك أن صدرك فاسدٌ من جهتي قد انطوت ضلوعك على مرض لسانك حلو كأنه عسل أبيض ، وعينك مُرّةُ النظرة كأنها علقم ، وشرك

---

(١) الأبيات من قصيدة ليزيد بن عبد الحكم الثقفي ، يعتب فيها على ابن عمه عبد الرحمن ابن عثمان بن أبي العاص ، والأبيات بكاملها في أمالي القالي (م١ ، ص ٦٨) ط. دار الكتب العلمية : بيروت.

ممدود واصل إليّ ، وخيرك ممنوع عني لايصلني .

عَدُوّك إذا لقيني خاف صولتي عليه ، لما يعلم من مناصرتي لك على أعدائك بينما أنت حرب عليّ تكنّ لي العداوة ، ليس ذلك أمرًا عدلا مستويًا .

كثيرة تلك هي مشاهد الحرب التي لولا أني موجود معك فيها لسقطت وهلكت سقوط الهاوي بجميع جسده من أعلى موضع في الجبل إلى أسفل موضع فيهلك .

تجمعت فيك إلى جوار فحش القول خصلة الغيبة والنميمة ، وهي ثلاث خصال سوء لا ترجع عنها ، ولا ترعوي .

والشاهد :

هو في قوله (لَوْلاَىَ) :

حيث جرّت (لولا) الضمير (ياء المتكلم) كما هو مذهب سيبويه .

وقد اتصلت (لولا) في الشاهد بالضمير الذي أصله أن يقع في محل الجرّ والنصب [1] .

وفي الشاهد رد على (المبرّد) الذي أنكر أن يقع بعد (لولا) ضمير من الضمائر المتصلة التي تكون في محلّ نصب أو في محل جرّ، وقال: إن ذلك

---

(١) ومع وجود الضمير المتصل (الذي يكون في محل النصب والجر) بعد (لولا) في كلام العرب الموثوق بهم فإنه قليل غير شائع شيوع وقوع الاسم الظاهر والضمير المنفصل بعد لولا ، نحو قوله تعالى : ﴿ لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ [سبأ: ٣١] ، ونحو قول المتنبي :

لولا العقول لكان أدنى ضيغم   أدنى إلى شرف من الإنسان

وقول الراجز :

والله لولا الله من مااهتدينا   ولاتصدقنــا ولا صلينـــا

لا يجوز عربيّة ، وقد ردّ هذا الشاهد على إنكار هذا ، كما ردّ عليه قول الشاعر (١) :

لَولاك في ذا العام لم أحجج

اللغة :

تكاشرني : التَّكشُّرُ : التبسُّم ، وكَشَرَ البعير عن أنيابه إذا كشف عنها . وكشر عن أسنانه يكشر كشرا : أبدى ، يكون في الضحك وفي غيره ، والاسم : الكِشرة (بكسر الكاف) .

والكشر : التبسّم ، كشر الرجل ، وأنكل ، وافتر ، وابتسم كل ذلك تبدو منه الأسنان .

دَوِي : من قولهم رجل دَوِي أي فاسد الجوف من مرض .

الماذي : (بكسر الذال وتشديد الياء) : العسل الأبيض .

طحت : هلكت ، أو سقطت ، يقال : طاح يطوح ، وطاح يطيح (مثل قال يقول ، وباع يبيع) .

(١) ينسب هذا البيت إلى عمر بن أبي ربيعة ، وهو غير موجود في ديوانه ،والصواب أنه للعرجيّ .

١٩ ـ يَوم حَليمة

تقول العرب في أمثالها : « ما يومُ حليمة بِسرّ » .

وحليمة هي بنت الحرث بن أبي شمر ملك غسان .

ويومها هو اليوم الذي وجه فيه أبوها الجيش إلى المنذر بن ماء السماء اللخميّ ، فلما قدم الجيش على المنذر قالوا له : صاحبنا يدين لك ويعطيك حاجتك فتباشر هو وأصحابه وغفلوا بعض الغفلة ، فحمل عليهم الجيش ، وقتلوا المنذر ، ويقال إنه ارتفع في ذلك اليوم من العجاج (غبار المعركة) ماغطى عين الشمس (١) .

وإنما أضيف ذلك اليوم إلى حليمة هذه ، لأنها جاءت إلى الجند بإناء ملآن بالطيب فطيبتهم به ، فقالوا : ما يوم حليمة بِسرّ .

ولأهمية وقعة يوم حليمة ، ولاستعار نار الحرب فيها اتخذت معياراً لقياس جودة ما استخدم فيها من أسلحة .

وها هو شاعرنا (٢) (وفي أبياته الشاهد) يصف أسيافًا بالجودة ، فينسبها إلى يوم حليمة ، من قصيدة مطلعها :

كليني لهم يا أميمة نَاصِبِ وَلَيْلٍ أقاسِيه بَطيء الكَوَاكِبِ

ثم يذكر الحرب ، وما استخدم فيها من سيوف فيقول :

فَهُمْ يَتَسَاقَوْنَ المنيةَ بَيْنَهُمْ بِأَيْدِيهِم بِيضٌ رِقَاقُ المضَارِبِ
وَلا عَيْبَ فِيهم غير أنَّ سُيُوفَهُمْ بِهنّ فلول من قِراع الكتائب

(١) جاء في الصحاح وتاريخ أبي الفداء أن المنذر قُتل في وقعة أخرى بين لخم وغسان تسمى « يوم عين أباغ » وهو موضع بين الكوفة والرقة .

(٢) الأبيات من قصيدة مشهورة للنابغة الذبياني .

[تُخُيِّرنَ مِنْ أزْمانِ يَومِ حَليمَـةٍ ... إلى اليوم ، قَدْ جَرّبْنَ كلَّ التجارب]

المعنى :

المحاربون في تلك الوقعة ـ التي يصفها النابغة ـ يتساقون المنية ، كأنما صبّ الموت في كؤوس فهم يتناولونها يسقى بعضهم بعضا تلك الكؤوس ، وبأيديهم سيوف بيض رقاق المضارب حادة قاطعة .

وليس في المحاربين من عيب يشينهم إلا أن السيوف التي بأيديهم قد أصابتها ثلّم وتكسّر في حوافها من شدة الضرب ومنازلة كتائب الأعداء .

وتلك السيوف التي بأيديهم قد انتقيناها بعناية ، وقضينا زمنا طويلاً في انتقائها واختيارها ، من لدن يوم حليمة إلى اليوم (يوم الحرب التي يتكلم عنها) .

والشاهد :

هو في قوله (من أزمان) :

حيث وردت (مِنْ) لابتداء الغاية في (الزمن) (وهذا محل اختلاف)[1] والمتفق عليه أنها تأتي لابتداء الغاية في الأمكنة والأحداث والأشخاص .

واللغة :

كليني : دعيني ،اتركيني .

ناصب : متعب ، مضنٍ ، قائم مستمر لا يزول .

(١) ذهب جمهور الكوفيين ، والمبرد ، والأخفش ، وابن درستويه من البصريين أن (مِنْ) قد تأتي لابتداء الغاية في الزمان ، ومال إلى هذا المحقق الرضيّ ، وهو ما ذهب إليه ابن مالك ،وابن هشام .
وذهب جمهور البصريين إلى أنها لا تجيء لذلك .
واتفق الجميع على مجيئها لابتداء الغاية في الأشخاص والأحداث والأمكنة .

بطيء الكواكب : كناية عن تألمه من شدة شعوره بطول الليل ، كأن الكواكب فيه لا تريد أن تغور أو تغرب من استبطائه حركتها لطول مراقبته إياها .

يتساقون : يسقي بضعهم بعضا ، ربما كانت كناية عن تبادل القتل في الفريقين ، أو كانت كناية عن استعذاب المحاربين الموت فهم يتبادلونه بينهم شأن الندماء عند تبادل كؤوس الشراب .

٢٠ ـ يا ليتني كنت صبيًا مُرْضَعًا

ما مِنْ صغير إلا ويتطلع إلى أن يكون كبير ، لما يرى ـ من وجهة نظره ـ ما للكبار من صلاحيات وسلطان ، يرجو أن تكون له .

لكن هل يرجو الكبير أن يرجع صغيراً مرة أخرى ، ربما إذا كان ذلك سيحقق له أمنية لا تتحقق إلا للصغار .

ذلك شأن شاعرنا .

فقد نظر إلى امرأة حسناء جميلة ذلفاء ، معها صبي يبكي ، فكلما بكى قبلته فأنشأ يقول :

يا لَيْتَني كُنْتُ صَبِيًا مُرْضَعَا تَحْمِلُني الذَّلْفَاء حَوْلاً أَكْتَعا
إذا بكيتُ قبَّلــتني أربَعَــا إذا ظللت الدَّهرَ أبكي أجْمَعَا

والمعنى :

يا ليتني متصف دائما بأني صبي رضيع تحملني المرأة المرضعة للصبيّ المسماة بالذلفاء عاما كاملاً ، وإذا بكيت في المستقبل قبلتني أربع مرات .

وإذا حصل ما تمنيته من كوني صبيًا مرضعًا ، وحملها لي عامًا ، وتقبيلها إياي عند البكاء ، فأنا إذا استمرّ على البكاء الدهر كله ، لأجل حملها إياي ، وتقبيلها لي .

والشاهد :

في قوله في البيت الثاني :

(إذَا ظَلَلْت الدَهر أبكي أجْمَعَا)

حيث جاء « أجمع » للتوكيد من غير أن يسبقها لفظ كُلّ .

ويرى ابن مالك أن استعمال « أجمع » للتوكيد من غير أن يسبقها لفظ «كل» قليل .

وقد خالفه البعض ، وقالوا : ليس كذلك ، لوروده في القرآن الكريم بكثرة ، نحو قوله تعالى : ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩] ، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر: ٤٣] .

وقد أجابوا عن قول ابن مالك « وهو قليل » بأن المراد أنه أثر بالنسبة لمجرد أجمع بعد كل ، وإلا فهو كثير في نفسه .

وفي البيت شاهد آخر ، وهو الفصل بين المؤكَّد وهو (أجمعا) والمؤكَّد وهو (الدَّهر) جملة (أبكي) وهذا قليل أيضًا ، وإن كان جائزًا ، ومثاله في القرآن الكريم : ﴿ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ﴾ [الأحزاب: ٥١] .

- وهناك شاهد ثالث في البيت الأول في قوله : « حَوْلاً أكْتَعًا » حيث أكد اللفظ النكرة « حَوْلاً » وهي نكرة محدودة .

أ - وتأكيد النكرة المحدودة جائز عند الكوفيين لحصول الفائدة بذلك ، نحو قولك « صُمْتُ شهرًا كلَّه » .

ب - أما البصريون فيمنعون ذلك ، حتى ولو كانت الفكرة غير محدودة، لأن لفظ التوكيد معرفة فلا يكون تابعا لنكرة ، وأجابوا عن مجيء ذلك في البيت الأول بأنه بيت مصنوع أو أنه شاذ .

وفي البيت الأول شاهد رابع ، وهو أنه جاء بـ « أكتعا » من غير أن يأتي قبلها بـ « أجمع » وهذا قليل أيضا .

والترتيب في التوكيد أن تقول : حضر القومُ كُلُّهم أجمعون أكتعون أبْصَعُوَن ، على هذا الترتيب كلّ لفظ توكيد منها يسبق ما بعده على الترتيب المذكور في المثال .

واللغة :

الذلفاء : على وزن حمراء .

وصف مشتق من الذَّلَف ، وهو صغر الأنف ، واستواء الأرنبة .

وقد جاء في « أدب الكاتب » أنه من عيوب الخَلْق .

وقال آخرون : والذلفاء من أسمائهن وتطلق على المرأة الحسناء ، كما أن الرجل « إذا كان حسنا يقال له أذلف » .

وجمع « الذلفاء » للأنثى « ذُلْفٌ » كما أنَّ جمع « الأذلف » للذكر «ذُلْفُ» أيضًا .

ويحتمل أن « الذلفاء » في البيتين اسم علم على امرأة لقوله في القاموس: والذلفاء من أسمائهن ، ولقول الشاعر :

إنما الذَّلْفاءُ ياقُوتَة   أخْرِجَتْ مِنْ كيس دَهْقَانِ

٢١ ـ فليت لي بهمو قومًا

عُرف بنو العنبر (أو بلعنبر) بأنهم أهدى قوم في العرب ، حتى ضرب بهم المثل في الهداية فقيل « عنبريّ البلد » وقد أدى هذا الخلق إلى مقابلة الإساءة التي تقدم إليهم بالإحسان ، وفي زمن لا يبقى فيه سالما إلا من يعجل الشرّ بما هو شرّ منهم ويبتدر العدوان عليه بعدوان منه على من ينوي العدوان عليه في زمن كهذا يُظَلّم الحليم ، ويودّ الواحد من هؤلاء القوم ذوي الأحلام والنهى لو كان قومه من أهل البغي حتى لا يتجرأ عليه الآخرون .

ذلك كان حال شاعرنا [١] الذي قال [وفي أبياته الشاهد] :

لَوْ كُنْتُ مِنْ مازنٍ[٢] لَمْ تُسْتَبَحْ إبلي ... بنو اللقيطة [٣] مَنْ ذُهْلِ بن شَيْبانا
إِذَنْ لقامَ بِنَصْرِي مَعْشَرٌ خُشُنٌ ... عِنْد الحفيظة إنْ لوثةٍ لانا
قَوْمٌ إذَا الشَرّ أبْدى نَاجِذَيْه لهُمْ ... طارُوا إليه زرافات ووحْدَانا
لا يَسْألونَ أخَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ ... في النائبات على ما قال برهانا
لكِنّ قَومي وإنْ كانُوا ذَوي عَدَد ... لَيْسُوا مَنَ الشر في شيء وإن هانا

---

(١) الشاعر هو : قُرَيْط (تصغير قرْط) بن أنيف (تصغير أنف) من شعراء بَلْعَنْبر .

(٢) قوله من « مازن » مراده مازن تميم ، وهي قبيلة من تميم سميت باسم أبيها مازن بن مالك ابن عمرو . والموازن أربعة : مازن تميم (المذكور في الأبيات) ، ومازن قيس ومازن اليمن ، ومازن ربيعة .

(٣) وبنو اللقيطة ذكر أنهم سُمّوا بذلك لأن أمهم ـ فيما زعموا التقطها حذيفة بن بدر في جوار قد أضرّت بهم السّنَة (أي الجدْب) فضمّها إليه ، ثم أعجبته فخطبها إلى أبيها وتزوجها ، وهي بنت عصم بن مروان . (ذكر ذلك في القاموس) .

يَجْزون من ظلم أهلْ الظُّلم مَغْفِرَةً وَمِنْ إساءَة أهْل السُّوء إحسَانًا
كأنّ ربَّك لَمْ يَخلُقْ لِخشْيته سِوَاهُمُو مِنْ جميعِ النّاسِ إنْسانًا
[فَلَيْتِ لي بهمُ قَومًا إذا ركبوا شنُّوا الإغارة فرسَانًا ورُكْبَانا]

والمعنى :

لو كنت من قبيلة مازن تميم لم يستبح بنو اللقيطة إبلي وينتهبوها دون خوف .

وإذن لغضب لي ، وسارع إلى نصرتي قوم خشنوا الطباع غضاب على من يستغضبهم أو يتجرأ على حماهم في وقت يلين فيه أهل اللونة والضعف (بعرض يقدمه بني العنبر) .

ويصف بني مازن بأنهم قوم إذا أظهر لهم الشر أنيابه لم يترددوا حياله ، بل طاروا إليه فرادى ومجتمعين .

وهم ـ من شدة مسارعتهم في النجدة وغضبتهم لمن هو منهم ـ لا يسألون أخاهم حين يدعوهم إلى القتال دليلا أو برهانا على وقوع ظلم عليه يستدعي أن يغضبوا له .

أما قوم الشاعر فهم ـ كما يقول ـ ليسوا من الشرّ في شيء وإن قَلّ مع كثرة عددهم ، وقدرتهم على الرد .

يجازون من ظلمهم من أهل الظلم بالصفح عنه والمغفرة لإساءته ، ويردون على إساءة أهل السوء بالإحسان إليهم .

وكأن الله لم يخلق لخوفه ومراقبته من جميع الناس أحدًا سوى بني العنبر هؤلاء .

فليت للشاعر ـ بدلاً منهم ـ قومًا ، إذا ركبوا خيلهم شنوا الإغارة على

من عاداهم فعل الشجعان الفرسان .

والشاهد (*) :

في قوله : (شنُّوا الإغارة) :

حيث نصبت كلمة الإغارة على أنها مفعول له (لأجله) مع كونه مقرونا بالألف واللام ، وهو قليل ، والأكثر فيه الجر باللام .

وهذا مثل قول الشاعر :

لا أقْعُدُ الجُبْنَ عن الهيجاء   ولَوْ توالت زُمَرُ الأعداء

حيث نصبت كلمة (الجبن) على أنها مفعول له (لأجله) مع كونها مقرونة بالألف واللام .

والمفعول له قد سبق التعريف به في الشاهد رقم (١٢) من هذه المجموعة ، وقد أشرت هناك إلى شروط ثلاثة يلزم تحققها فيه ، فإذا فقد أحدها وجب جره باللام والمفعول له على ثلاثة أحوال :

أولها : أن يتجرد عن الألف واللام والإضافة ، ومثاله (كافأت الناجح تشجيعًا له) .

وحكمه - في الأكثر - النصب ، ويجوز جره فتقول « كافأت الناجح لتشجيعه » .

وثانيها : أن يكون محلًّى بالألف واللام ، ومثاله ما ذكرت هنا من شواهد، وحكمه - على العكس من المجرد من الألف واللام - أن يكثر جره، فتقول : « كافأتُ الناجح للتشجيع » ويجوز نصبه كما في الشاهدين اللذين ذكرتهما .

(*) في البيت شاهد آخر (في مبحث حروف الجر) على استعمال حرف (الباء) بمعنى (بَدَل).

وثالثها : أن يكون المفعول له مضاف ، فيجوز فيه الوجهان :

ـ فتقول : « كافأت الناجح تشجيعه » .

ـ أو تقول : كافأت الناجح لتشجيعه » .

واللغة :

معشر خَشنُ : جمع أخشن : كأحمر وهو الصلب ضد اللين .

عند الحفيظة : الحفيظة (وزن عظيمة) : الغضب والحميَّة .

ذو لوثة : اللوّثة : (بضم اللام) تطلق (كما في الصحاح) على الاسترخاء والبطء وعلى الهياج والثورة (فهي بذلك من الأضداد) .

و(في حاشية المغنى) أنها : بضم اللام : الضعف ، وبفتح اللام : القوة . و(في الجوهري) على أن الذي بمعنى القوة هو (اللوث) بفتح اللام، وبدون الهاء .

أبدى ناجذية : هذه كناية عن الاشتداد والصولة .

زرافات : جمع زرافَة ، وهي الجماعة من الناس .

ووحدانا : (ويقال أيضا : أحدانا) : جمع واحد ، مثل شابّ وشبان، وراع ورعيان .

شنوا الإغارة : من الشنّ ، وهو التفريق ، أي فرقوا أنفسهم لأجل الإغارة (أو بمعنى تفرقوا لأنهم لأجل الإغارة على العدو يتفرقون عليه من جميع جهاته) .

فرسانا : جمع فارس ، وهو المحارب راكبُ الفرس .

وركبانا : جمع راكب ، وهو أعمّ مما قبله ، لكن المراد به هنا ، راكب دابة غير الفرس ليكون غير الأول .

٢٢ ـ جاءَ الخِلافَة أو كانت له قَدراً

قد يعتلي سرير العرش أمير أو خليفة ، يشتري المديح بالذهب ، ويرى في ألسنة الشعراء سهاما تقاتل له دون حرب ، وتعلى ذكره في العالمين .

وقد يعتليه من يقرب العلماء ويبعد الشعراء ، ويقرب الأتقياء الناصحين ويبعد المادحين المتزلفين .

لما ولى عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ أقام الشعراء ببابه أيامًا لا يؤذن لهم ، فبينما هم كذلك وقد أزمعوا على الرحيل إذ مر بهم عدي بن أرطأة ، فقال له جرير :

يا أيها الرَّجُلُ المرخي عمَامَتَه هَذَا زَمَانُك إنّي قَدْ مَضَى زَمَني
أَبْلغ خليفتنا إنْ كنت لاقِيَهُ أنّي لَدَى البَاب كالمصفود في قرن
لاتنْسَ حاجتنا ، لاقيت مَغْفِرَةَ قَدْ طَال مَكْثِي عَنْ أَهلي وَعَنْ وطني

فدخل عدي بن أرطأة فقال : يا أمير المؤمنين ، الشعراء ببابك ، وسهامهم مسمومة وأقوالهم نافذة .

فقال عمر : ويحك يا عديّ ، مالي وللشعراء ؟

قال عدي : أعزّ الله أمير المؤمنين ، إن رسول الله ﷺ امتُدِح وأعطى ، ولك فيه أسوة حسنة .

فقال عمر : من بالباب منهم ؟

قال عدي : عمر بن أبي ربيعة ، وجميل ، والأخطل ، وذكر جماعة .

فقال عمر : أليس هذا القائل كذا ؟ وهذا القائل كذا ؟ ، (وذكر لكل واحد أبياتًا تُشعر برقة الدين) والله لا يدخل عليّ أحد منهم ، (حتى ذكر

جريرًا) فقال : إن ولابدّ ، فهو (وذكر له البيت الذي استقبحه الأدباء) فقال: أما إنه قال :

طَرَقَتْكَ صَائدة القُلُوب وليسَ ذا وَقْت الزِّيارة ، فارجعي بسَلام

فأذن لجرير بالدخول ، فدخل وهو يقول :

إنّ الذي بَعَثَ النبيَّ محمدًا جَعَل الخلافَة للإمام العادلِ
وَسِعَ الخلائق عَدْلُهُ وَوَفاؤه حتى ارعَوَوْا وأقامَ مَيْلَ المائلَ
إنّي لأرجُو منك خَيْرًا عَاجلاً وَالنَّفْسُ مُوَلَعَة بحبّ العاجل
والله أنزل في الكتاب فريضةً لابن السَّبيل وللفقير العَائل

فلما مثل بين يدى عمر قال له : ويحك ياجرير ، اتق الله ، ولا تقل إلا حقا.

فقال جرير [وفيه الشاهد] :

أأذكُرُ الجهْدَ وَالبلوَى التي نَزَلَتْ أمْ قدْ كَفَانِي مَا بُلّغْتَ مِنْ خَبَرِي
إنّا لنرجُو إذا ما الغيث أخْلَفَنا مَن الخَليفة ما نرجو من المطرِ
هَذى الأرامل قَدْ قَضيْتَ حَاجتَها فَمَنْ لِحاجَة هَذَا الأرْمَل الذَّكر
الخير ما دُمْتَ حيًا لا يُفَارقنا بُوركْتَ يا عُمرَ الخَيْرَات مِنْ عُمَر
[جاء الخلافَةَ أوْ كانت له قدرًا كما أتى ربَّه مَوسَى على قدر]
أصبَحْتَ للمِنبَرَ المعْمُور مَجْلسُه زَيْنا ، وَزَينَ قَباب المَلْك والحَجر

فقال عمر : يا جرير ، ما أرى لك فيما ههنا حقًا ، وقد وليتُ هذا الأمر وما أملك إلا ثلثمائة درهم : فمائة أخذها عبد الله ، ومائة أخذتها أم عبد الله ، يا غلام أعطه المائة الباقية .

فأخذها جرير ، وقال : والله ، لهي أحبّ ما اكتسبت إليّ .

ثم خرج ، فقال له الشعراء : ما وراءك ؟ قال : ما يسوؤكم ، خرجت من عند أمير المؤمنين وهو يعطي الفقراء ويمنع الشعراء ، وإني عنه لراضٍ ، وأنشأ يقول:

رأيتُ رُقَى الشيطانِ لا تَستفزّه وقَد كانَ شيطاني مِنَ الجن راقيًا

والمعنى :

أن عمر بن عبد العزيز وصل إلى الخلافة ، وكانت موافقة له ، ولائقة به، أي أنها صادفت محلها ، وإنه كان أحق بها وأهلها ، كإتيان موسى عليه الصلاة والسلام لمناجاة ربه ، فإن ذلك أيضا كان في محله ، وجاء لمستحقه وأهله حيث اختاره مولاه لهذا المقام ، واصطفاه على الناس بالرسالة والكلام.

والشاهد :

في قوله (أو كانت) :

حيث استعمل (أو) مكان (الواو) فالمعنى : جاء الخلافة وكانت له قدرًا لأن المدح يستقيم بهذا ، إذ لو بقيت (أو) على معناها الأصلي (وهو الإباحة أو التخيير) لما كان مدحًا أبدًا .

لكن قد قال (في حاشية المغني) قال ابن عصفور في شرح الجزولية : يمكن أنه شك ، هل جاءها بسعي منه ، أو كانت مقدرة بلا كَسْب .

وقد يقال : الأنسب بحال الممدوح أنها للإضراب (أي أن الشاعر قد قرر أمرا وهو (جاء الخلافة) ثم أضرب (عدل وغيّر رأيه) عن هذا القول فاستعمل (أو) وقال : (أو كانت له قدرًا) .وعلى هذا فلا شاهد في البيت .

واللغة :

جاءَ : يستعمل لازمًا بمعنى (حضر) نحو « جاء زيدٌ » .

ويستعمل متعديًا بمعنى (وصل) كما في البيت (جَاءَ الخلافةَ) ، وفاعله ضمير مستتر فيه جوازًا تقديره (هو) .

أتَى : شأنه شأن جاء .

يستعمل لازمًا بمعنى (حضر) نحو : أتى زيدٌ .

ويستعمل متعديًا بمعنى (وصل) كما في البيت الشاهد (كما أتَى ربَّه موسى) .

٢٣ ـ لاهِ ابنُ عَمِّكَ

إذا كان القوم أكفاء أبناء عمومة أو خؤولة ذوي قرابات ، فلا مجال ـ عند العقلاء منهم ـ للتفاخر أو التطاول من جانب بعضهم على بعض فإن وقع ذلك ، فهي العداوة ، وهي الحرب على ما فيها من شرور .

ومن الشعراء العقلاء حرثان العدواني ، الملقب بذي الإصبع [١] ، وكان من فرسان الجاهلية ، وحكماء شعرائهم ، وله قصيدة مطلعها :

يَا مَنْ لِقَلْبٍ طَوِيلِ البَثِّ مَحْزُونِ   أَمْسَى تَذَكُّرَ ريا أم هارون[٢]
أمسى تَذَكّرها من بعْد ما شحطت   والدّهر ذُو غلظَةٍ حينا وَذو لين[٣]

ويبدو أنه ابتلى بابن عمّ له لا يعرف للقرابة حقها ، فهو يريد الاستعلاء، فيجلب بالاستعلاء الاستعداء ، لكن حكمة « حرثان » دفعته إلى أن يذكر ابن عمه هذا بالحقيقة التي يجب أن يفيء إليها ، وهي أنه ما دامت الأصول متكافئة ، فلا مجال للتعالي ، وخصوصًا على مَنْ لم يأتك من جانبه إلا الخير .

قال حرثان (وهو الشاهد) مخاطبًا ابن عمه :

---

(١) لُقّب حرثان العدوان بذي الإصبع لان أفْعَىً ضربت إبهام رجله ، فيبست أو قطعها ، فلقب بـ « ذي الإصبع » لذلك .
(٢) البث : الهم والحزن ، ريًّا : رائحة .
(٣) سخطت : بعدَت وتناءت .
(وفي البيت حذف يفسره ما سبقه ، ومعنى الشطر الثاني (والدهر ذو غلظة حينا ، وذو لين حينا آخر) .

لاهِ ابنُ عَمِّكَ لا أفضلت في حَسَبٍ عَنّي ، ولا أنت دَيّاني فتخزوني(*)

والمعنى :

لله ابن عمك ، فلقد ساداك في الحسب ، وشابهك في رفعة الأصل ، وشرف المحفد ، فما من مزيّة لك عليه ، ولا فضل لك فتفتخر به عليه ، ولا أنت مالك أمره ، المدبّر لشؤونه ، فتقهره وتذلّه .

ويحتمل المعنى : لله در ابن عمك ، فإنه حاز من الأوصاف الجميلة ما يحقّ أن يتعجّب منه ، ويذعن إليه ، وأما أنت فلم تزد عليّ في الحسب والمناقب ولست مالك أمرى حتى تسوسني وتقهرني .

الشاهد :

في قوله (عنّي) :

حيث استعمل (عَنْ) بمعنى (عَلَى) .

والأصل في (عَنْ) أن تستعمل للمجاوزة (أي الافتراق والتخطي) كما في قولك (رميت السّهم عن القوس) أي رميت السهم فجاوز القوس وانطلق ، وهذا هو استعمالها الأكثر ، كما أن (عَنْ) تستعمل بمعنى (بَعْدَ) كما في قوله تعالى : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ [الانشقاق:١٩] أي : بعد طبق .

والأصل في (عَلَى) أن تستعمل كثيرا للاستعلاء ، كما في قولك : (زيد على سطح بيته) أي فوقه قد علاه ، كما أن (عَلَى) تستعمل بمعنى

(*) وبعد البيت الشاهد أبيات مكملة يقول فيها :

ولا تقوت عيالي يوم مسغبة ولا بنفسك في العزّاء تكفيني
فإن ترد عرض الدنيا بمنقصتي فإن ذلك مما ليس يشجيني
ولا يَرى فيّ غير الصبر منقصة وما سواه فإن الله يكفيني

(في) كما في قوله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ [القصص: ١٥] .

وفي الشاهد استعمل الشاعر لفظ (عَنْ) في قوله (عني) بمعنى (عَلَى) والشر في ذلك أن (أفضل) في قوله (أفضلت) هي بمعنى (زاد) في الفضل ، وهو (أي أفضل) إنما يتعدّى بـ (عَلَى) ، فدل بذلك على جواز استخدام (عَنْ) بمعنى (عَلَى) .

وإذا ضُمِّن الفعْلُ (أَفضل) معنى (مَيَّزَ) فلا شاهد في البيت ، لأن المعنى عندئذ يكونَ (لا مُيِّزت عني في حسب) .

واللغة :

١ ـ لاه : أصل هذه الكلمة (لله) ، فهي جار ومجرور ، متعلق بمحذوف ، وتقع في عبارة (لاه ابنُ عمك) ـ تقع خبرًا مقدمًا ، وابنُ مبتدأ مؤخر ، وهو مضاف إلى (عمٍّ) الذي هو مضاف إلى (كاف الخطاب) .

والذي جرى هو حذف اللام من كلمة (لله) واللام حرف جر ، ومع حذفها أبقىَ عَملُها (وهو جرّ الكلمة) وهذا شاذ ، ثم حذفت أداة التعريف من لفظ الجلالة (الله) فبقيت كلمة (لاهِ) مجرورة .

والكلام على تقدير (لله در ابن عمك) فحذفت كلمة (دَرّ) وهي مضاف ، وأقيم المضاف إليه (وهو كلمة ابن) مقام المضاف ، فارتفع (صار مرفوعًا) .

٢ ـ ديَّاني : أصله (ديَّانُني) حذفت نون الوقاية للتخفيف .

ومعنى دياني : مالكي ، القائم بأمرى وتدبير شؤوني .

٣ ـ فتخزوني : هي من قولك : خزاه يخزوه خَزْوًا : أي ساسه وقهره، (فهو بذلك فعل واوي ، بخلاف خَزِيَ يَخْزَى خزيًا) أي ذل وهان .

٢٤ ـ فَلا حَبَّذا هيَا

لا شيء أغيظ لقلب امرأة ، وأشد تنغيصا لحياتها ، من أن ترى امرأة أخرى تقع موقع المودة من قلب حبيبها ، فكيف بالعشق .

ولا أقدر من امرأة على الكيد والتدبير للتفريق بين حبيبين .

قالوا : إن كَنْزة أم شملة بن برد المنقري اغتاظت من (مية) صاحبة غيلان بن عقبة الملقب بذي الرمة فهجتها بأبيات [أولها وهو الشاهد] وهي(*) :

[ألا حبذا أهلُ المَلا غَيرَ أنَّه ... إذا ذُكِرتْ مَيٌّ فلا حبذا هِيَا]
عَلَى وَجْه مَيّ مِسْحَةٌ من مَلاَحَة ... وَتَحْتَ الثياب الشَّيْنُ لَوْ كانَ باديًا
ألَمْ تَرَ أن المَاء يَخْبُثُ طعْمُهُ ... وَإنْ كانَ لَوْنُ الماءِ في العينِ صافيًا
إذا ما أتَاهُ وَارِدٌ من ضرورة ... تَوَلّىّ بأضعاف الذي جاء ظاميا
كذلك مَيٌّ في الثِّياب إذَا بَدَتْ ... وأتوا بها يَخفين مِنْها المخازيا
فَلَوْ أنَّ غَيْلانَ الشَّقيّ بَدَا لهُ ... مجَرّدة يومًا لما قال ذا ليًا
كقَولِ مَضَى منهُ ولكنْ مَرَدّهَ ... إلى غَيْرِ مَيّ ، أو لأصبح ساليًا

(*) تعددت الروايات حول قائل هذه الأبيات :

١ ـ قال أبو تمام : إنها لكنزة أم شملة المنقري تهجو بها ميّ .

٢ ـ وقال التبريزي في شرح الحماسة : البيت لذي الرمة نفسه ، وروى بعد الشاهد البيت الثاني له (بلفظ : وتحت الثياب العار) .

٣ ـ ومن قائل : إن الأبيات لأمة من آل قيس بن عاصم تسمى (كُثَيِّرة) نحلتها (نسبتها إلى) لذي الرمة بقصد التفريق بين الحبيبين .

٤ ـ ومن قائل : إنها لظبية أم ذي الرّمة نحلتها إياه ، فامتعض من ذلك ، وحلف =

والمعنى : (الشاهد)

تنبهوا أن أهل الصحراء أحق بالمدح والثناء الجميل إلا تلك المرأة التي تسمى (ميّ) فإنها تستحق الذم إذا ذكرت.

والشاهد :

في قوله (حبذا) في صدر البيت ، و(لاحبذا) في عجزه .

حيث جعل (حبذا) كنعم لإنشاء المدح .

وجعل (لاحبذا) كبئس لإنشاء الذم .

وقد جمع في البيت الواحد بين المدح والذم ، وهو جائز .

والقول في (حبذا) :

- أن (حَبَّ) (وهو فعل جامد لإنشاء المدح) غير مركبة مع (ذا) وهذا هو القول المختار .

- وقيل إن (حب) مركبة مع (ذا) وأنهما معًا اسم واحد بمنزلة قولك: (المحبوب أهل الملا) في تفسير (حبذا أهل الملا) .

- وقيل : إن (حبّ) مركبة مع (ذا) على أنها فعل ماض تغليبًا للسابق على اللاحق .

والقول الأخير : أن (حب) فعل ، والاسم الظاهر [وهو : أهل الملا في الشاهد] فاعله ، و(ذا) ملغاة .

= بجهد أيمانه أنه ما قالها . قال : كيف أقول هذا وقد قطعت دهري ، وأفنيت شبابي أشبّب بها ؟

٥ - ومن قائل إنها لنوار ابنة ميّ قالتها على لسان ذي الرمة .

وشعر ذي الرمة يدل على حب صادق لميّة ، ويظهر أن تلك الأبيات منحولة عليه .

والذي عليه الجمهور في إعراب (حبذا) أن : (حبّ) فعل ماض جامد لإنشاء المدح ، و (ذا) فاعله ، والفعل والفاعل خبر مقدم في محل رفع ، والممدوح مبتدأ مؤخر .

واللغة :

الملا : الفضاء الواسع .

والمقصود هنا الصحراء التي بها ميّ .

الشواهد

الفهرس

تم الصف والإخراج الفني
بمركز الصفا للكمبيوتر
مصر - منية سمنود - دقهلية
ت : ٠٤٠/٢٩٧٦١٣٧